



جامعة أم درمان الإسلامية

**كلية الدراسات العليا
قسم الدراسات الأدبية والنقدية**

القيم الأدبية والنقدية في كتاب

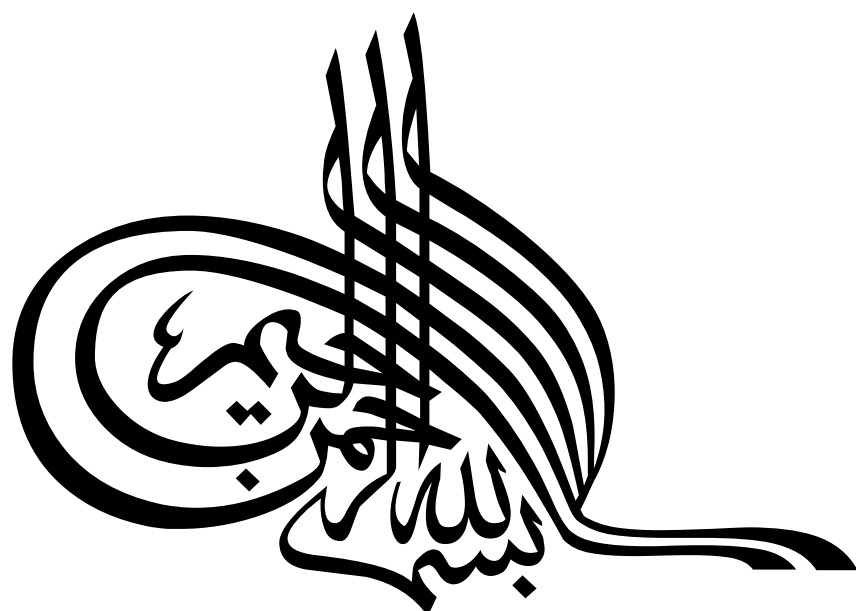
التذكرة الفخرية لجهاء الدين الإربلي

بحث مقدم للحصول على درجة الماجستير

**إشراف الدكتور:
فاروق الطيب البشير**

**إعداد الطالبة:
نفيسة إسماعيل إسحق**

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م



الاستملال

﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ *
ذَوَاتَا أَفْنَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ
* فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

صدق الله العظيم

سورة الرحمن الآيات (٤٦-٥١)

الإهداء

إلى روح أبي طيب الله ثراه

إلى روح أستاذي الجليل بابر بدوي دشين طيب الله ثراه

إلى أمي أطل الله عمرها

إلى أبنائي الذين أخذت من وقتهم الكثير

إلى إخوتي وأخواتي وزملائي المعلمين

إليكم جميعاً أهدي أولى ثمرات كفاحي الطويل في سبيل

العلم والمعرفة

شكر وتقدير

عملاً بقوله سبحانه: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (١).

أتقدم بالشكر الجزيل إلى الله سبحانه وتعالى أولاً وأخيراً أن مدّ لي في عمري، وإن وفقني وسدّد خطاي في مسيرة هذا البحث.

ثم الشكر موصول إلى أستاذي الجليل الدكتور/ فاروق الطيب البشير الذي أشرف وأعان وقوّم وما بخل عليّ بعلمه الثرّ، والشكر والعرفان للدكتور عبد الرحمن عطا المنان الذي أشرف نيابة عن الدكتور/ فاروق الطيب والشكر أجزله للأستاذ الجليل/ التجاني سعيد الذي وجهني ودلّني على كثير من المراجع وأمّهات الكتب التي أضناني البحث عنها في المكتبات. والشكر إلى أسرة مكتبة جامعة أم درمان الإسلامية وأخص الدكتور محمد صالح محمد خير.

والشكر لكل من نصّح وقوّم هذا البحث.

سائلة المولى عز وجل أن يجزيهم أحسن الجزاء

الباحثة

(١) سورة النمل، الآية ١٩

المقدمة

الحمد لله حمد الشاكرين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الغر الميامين، وعلى تابعيهم ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فقد رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "الشعر ديوان العرب"، وقد ظلت هذه المقولة متداولة عبر مراحل التاريخ المختلفة بوصفها أصدق تعبير لمكانة الشعر من بين علوم العرب، وكلمة ديوان تعني سجل، ومعنى قول ابن عباس هو أن الشعر ذلك السجل الذي تؤرخ فيه الأمة نفسها، فالشاعر بوصفه متحدثاً رسمياً عن ضمير الأمة يقوم في أشعاره بتوثيق الأحداث وروايتها، وهذا ما جعل للشاعر تلك المكانة المرموقة، ليس عند العرب فقط بل عند جميع الشعوب الأخرى.

وقد كان الشاعر في الجاهلية أكثر تأثيراً منه في الأجيال اللاحقة، لذلك كانت القبيلة تحتفي أيما احتفاء إذا ظهر بين أبنائها شاعر جديد، فوجود الشاعر في القبيلة يعني أنه الشخص الذي سيذكر محاسنها في أشعاره، والذي يفتخر برجالها، والذي يرثي موتها ويمجد عظماءها، وهو الذي سيكتب تاريخ قبيلته من كافة النواحي الاجتماعية والحربية والقبلية. وهكذا كان دور الشاعر عبر التاريخ العربي، فقد كان الشعراء هم المؤرخون الحقيقيون للحضارة العربية قبل أن يظهر علم التاريخ، ولهذا فقد ظل ديوان الشعر العربي هو المصدر الأول لقراءة أحداث الماضي. ولمعرفة مظاهر الحياة الاجتماعية في الأزمنة المختلفة، ومن ثم كان الاهتمام بالشعر والشعراء من أهم ملامح تاريخ الأدب العربي، فقد تصدى العلماء لجمع هذا الإرث الشعري في دواوين مفردة ظلت المرجع الأول للدارسين فيما بعد، فأما الشعراء فقد أرخ لهم العلماء في موسوعات ضخمة كما فعل ابن سلام في

طبقات فحول الشعراء، وابن قتيبة في كتابه معجم الشعراء، وابن المعتز في طبقات الشعراء وغيرهم حتى توالى تصنيف تراجم الشعراء إلى يومنا هذا. وأما عن الشعراء فقد انبرى كثير من أئمة اللغة لجمع أشعار المتقدمين مثل الأصمعي وثعلب والسكري وغيرهم، فقد جمع هؤلاء الأعلام عدداً من دواوين شعراء الجاهلية، وقاموا بشرحها وبيان غامضها وانبرى علماء آخرون لجمع ما تناثر من أشعار في مجاميع خاصة يغلب عليها طابع الاختيار الشخصي للمؤلف، ومن أشهر هذه المصنفات، حماسة أبي تمام، وحماسة البحتري، وحماسة الخالدين، والأصمعيات، والمفضليات وجمهرة أشعار العرب وغيرهم.

وقد امتدّ هذا النوع من التصنيف واتسعت رقعته، فوصلنا من الأندلسيين مجاميع شعرية كثيرة مثل الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام، ورايات المبرزين والمغرب كلاهما لابن سعيد الأندلسي، كما تبنى طائفة من العلماء والأدباء جمع التراث الشعري لبعض العصور التي عاشوا فيها كما فعل الثعالبي في يتيمة الدهر، والباخرزي في دمية القصر وغيرهما كثير.

ويُعد كتاب التذكرة الفخرية من بين هذه المصنفات التي حظيت بتقدير العلماء والأدباء، فقد سار فيه مؤلفه على هدى سابقه في جمع مستملح الأشعار ورائق النظم من شعراء زمانه وغير زمانه فجاء الكتاب حلقة بارزة في منظومة الاختيارات الشعرية التي تداولها الناس.

١- أسباب اختيار الموضوع وأهميته:

أولاً: لم يُحظ هذا الكتاب بدراسة الباحثين من قبل، مما دفعني لاختياره ثم القيام بدراسته وتحليله من المجاميع الشعرية التي طرّقها الباحثون أكثر من مرة.

ثانياً: قيمة الكتاب الأدبية، فقد تناول أشعاراً امتد زمانها من الجاهلية إلى عصر المؤلف، وهذا يكفي لجعله في مصاف كتب الاختيارات المهمة.

ثالثاً: حسن ترتيب المؤلف للأشعار وتقسيم أغراضها تقسيماً حسناً يجعله مرجعاً سهل التناول لمن يريد الكتابة في غرض شعري محدد ويتابع مساره.

رابعاً: متانة علم المؤلف بالشعر العربي جعلت من الكتاب كتاباً لأهل التدقيق للأشعار الرائقة، فقد جاءت اختياراته غاية في الذوق والتخير السليم.

٢- منهج البحث:

اتبعت في هذه الدراسة المنهج الوصفي والمنهج التحليلي بوصفهما أنسب المناهج لإقامة مثل هذه الدراسة، والمنهج التاريخي لدراسة عصر الإربلي والوقوف على النواحي الاجتماعية والثقافية والسياسية.

٣- خطة البحث:

لقد قمتُ بتقسيم البحث إلى خمسة فصول كالآتي:

الفصل الأول: عصر بهاء الدين الإربلي وحياته، وفيه مبحثان:

■ المبحث الأول: عصر الإربلي ويتضمن ثلاثة مطالب.

■ المبحث الثاني: التعريف بالإربلي، ويتضمن أربعة مطالب.

الفصل الثاني: التعريف بكتاب التذكرة الفخرية ويتضمن خمسة مباحث كالآتي:

■ المبحث الأول: غرض الكتاب وموارده.

■ المبحث الثاني: ترتيب الكتاب وتبويبه.

■ المبحث الثالث: أثر المصنفات السابقة في الكتاب.

الفصل الثالث: القيم الأدبية في كتاب التذكرة الفخرية ويتضمن أربعة مباحث:

■ المبحث الأول: الغزل وفيه أربعة مطالب.

■ المبحث الثاني: وصف في الشباب والمشيب والغناء، وفيه أربعة مطالب.

■ المبحث الثالث: وصف في الربيع والرياح والأزهار والسحاب وفيه أربعة مطالب.

■ المبحث الرابع: وصف في الخمر والمدح والفخر، وفيه ثلاثة مطالب.

الفصل الرابع: الدراسة النقدية في كتاب التذكرة الفخرية، وفيه خمسة مباحث:

- المبحث الأول: اللغة.
 - المبحث الثاني: تطور المعاني والأسلوب.
 - المبحث الثالث: الأخيلة.
 - المبحث الرابع: الأوزان والقوافي.
 - المبحث الخامس: النوادر.
- وأخيراً الخاتمة وفهارس المصادر والمراجع والموضوعات.

٤- الصعوبات التي واجهت الباحثة:

أولاً: ندرة البيانات عن المؤلف مما لا يمكن من دراسة الكتاب بشكل أوسع لغياب كثير من البيانات عن صاحبه، ومعرفة مذهبه السياسي والاجتماعي.

ثانياً: اعتماد المؤلف على أشعار لم يبين قائلها، مما أرهقني في البحث عنها في بطون الكتب، أو المجاميع الشعرية المطبوعة. فقد كان المؤلف يقول قبل إيراد البيت: (وقال آخر) أو (قال الشاعر) هكذا دون نسبة.

ثالثاً: اعتماد المؤلف على بعض أشعار المتأخرين مما لا يوجد في دواوين الشعر المتداولة، مما جعل الباحث يعاني التتقيب في كثير من الكتب لتغطية بعض جوانب هذا النقص.

هذه بعض الصعوبات التي واجهت الباحثة واستطاعت بحمده تعالى أن تتغلب على أكثرها، فجاء البحث بهذه الصورة المقدمة. فإن أكن أصبت فمن الله وحده، وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان. والحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات.

الباحثة

التمهيد

الاختيارات الشعرية وأهميتها في الأدب العربي

كل أمة من الأمم تحاول جاهدة الحفاظ على تراثها، حتى تستطيع الأجيال اللاحقة التعرف على مآثر الآباء والأجداد، ليكون حافظاً ودافعاً لهم ليسيروا على نهجه ويضيفوا إليه. والأمة العربية من الأمم المبدعة في كافة المجالات خاصة في مجال الأدب وأغراضه المختلفة لذا قام بعض أبناءها بجمع هذا التراث وحفظه للأجيال القادمة، لأن تراث العرب قد ضاع منه الكثير إبان العصور المختلفة والشعراء العرب ذهب من شعرهم الكثير، أما الذي بين أيدينا اليوم فيعدُّ قليل من كثير. قال أبو عمرو بن العلاء: (ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافرأ لجاءكم علم وشعر كثير)^(١).

هناك مجموعة من الاختيارات الشعرية أولها:

المفضليات: للمفضل الضبي^(٢).

من قبل المفضل لا نعلم أحداً أقدم على أن يصنع للناس اختياراً من الشعر، لأن العرب كانوا يتنازعون على أفخر بيت للعرب، وأهجاه وأغزله، ومن مجادلتهم في أشعر الشعراء وأجودهم قولاً، إلا ما يروى من اختيار العرب في جاهليتهم للمعلقات.

قال عن المفضل الضبي محمد بن سلام في طبقات الشعراء "وأعلم من ورد علينا من غير أهل البصرة المفضل بن محمد الضبي الكوفي"^(٣).

(١) طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام، ج ١، القاهرة، دار النشر، ص ٢٥.

(٢) أبو العباس المفضل بن محمد بن يعلى بن عامر بن أبي الضبي، كان علامة راوية للأدب والأخبار وأيام العرب، موثقاً في روايته، توفي ببغداد سنة ٢٩٠هـ، له مجموعة مؤلفات منها: معجم الأدباء، ياقوت الحموي.

(٣) المفضليات، تحقيق وشرح محمد نبيل طريفي، بيروت، دار صادر، المجلد الأول، ط ١، ٢٠٠٣م،

يقال أن المفضل خرج مع إبراهيم بن عبد الله بن حسن على بن أبي طالب القرشي الهاشمي، وإبراهيم خرج بالبصرة على أبي جعفر المنصور، وخرج معه كثير من العلماء ومنهم المفضل الضبي يقال ظفر بهم المنصور فعفا عنهم وألزم المفضل ابنه المهدي، ومروا أبو جعفر المنصور بالمفضل وهو ينشد المهدي قصيدة المسيب التي أولها "أرحلت" فلم يزل واقفاً من حيث لا يشعر به حتى استوفى سماعها، ثم صار إلى مجلس له، وأمر بإحضارهما فحدث المفضل بوقوفه واستماعه لقصيدة المسيب واستحسانه إياها وقال له: لو عمدت إلى أشعار المقلين واخترت لفتاك لكل شاعر أجود ما قال لكان ذلك صواباً" ففعل المفضل وللمهدي عمل الأشعار المختارة المسماة "المفضليات" وهي ثمانون قصيدة هي أصل الكتاب^(١).

الحماسة: لأبي تمام:

كتاب الحماسة ألفه أبو تمام في عودته إلى العراق، كان أبو تمام عند عبد الله بن طاهر في خراسان، ثم صدر عنه يريد العراق، فلما كان بهمذان استضافه آل سلمة، فنزل فيهم على الحفاوة والتكرمة، ولكنه فيما يبدو كان قلقاً معجلاً، لا يطمئن إلى المقام ولا يرى رأي أصحابه فيه. ثم يشاء الله أن يكون ما يشتهون لا ما يشتهي أبو تمام، وأن يكون للآداب من وراء ذلك خير كبير.

فقد أصبحوا يوماً فإذا ثلج همدان يسقط غزيراً متكاثفاً، يغطي الأرض ويقطع الطريق، فانقبض لذلك أبو تمام وسر له آل سلمة، ولم يجدوا أفضل من خزانة كتبهم يخرجونها إليه لعله يطيب بها وينشرح صدره لها. وقالوا له كالمسامتين به أو المغتتمين له: وطن نفسك على المقام فالثلج هنا متناقل بطيء، فما وسعه إلا أن يتقبل الواقع ويروض نفسه عليه، وانصرف إلى الكتب يقرأ ويصنف فكانت الحماسة، وكان معها أربعة كتب غيرها في الشعر أيضاً، منها كتاب الاختيار من أشعار القبائل.

(١) ديوان المفضليات، تحقيق وشرح محمد نبيل طريفي، المجلد الأول، لبنان - بيروت، دار صادر،

ط١، ٢٠٠٣م، ص ٨ - ٩.

قالوا ولم يزل كتاب الحماسة في خزانة آل سلمة يضمنون به ولا يكادون يخرجونه لأحد، حتى تغيرت حالهم، وورد همذان رجل من أهل دينور^(١) يعرف بأبي العواذل، فظفر به وحمله إلى أصبهان، فأقبل أدباؤهم عليه، وآثروه على غيره من الكتب المصنفة في معناه حتى شهر فيهم وفيمن يليهم جيلاً بعد جيل^(٢).

وكتاب الحماسة في باب ككتاب المفضليات، كلاهما أول وكلاهما إمام نظر الناس إليه واتبعوا سبيله. فمن الكتب التي ألّفت على مثال الحماسة كتاب حماسة البحري، وكتاب حماسة الخالدين، وكتاب حماسة ابن الشجري^(٣).

التذكرة الفخرية: لبهاء الدين الإربلي:

كتاب التذكرة الفخرية وهو موضوع دراسة الباحثة يعد أيضاً من الاختيارات الشعرية. إذ يضم هذا الكتاب مجاميع شعرية كبيرة لشعراء لم تعرف دواوينهم، أو لأشخاص لم تقف التراجم عند أخبارهم، ويضم الكتاب ثروة شعرية وافرة بالإمكان إضافتها إلى دواوين بعض الشعراء المتأثرة، وكما ذكرت سابقاً لقد أقدم بهاء الدين الإربلي لتأليف كتابه هذا تلبية لطلب منوهر بن أبي الكرم الهمذاني صديق المؤلف لقد اتبع المؤلف نهج سابقه مثل المفضليات وحماسة البحري وابن الشجري... الخ.

(١) مدينة من أعمال الجبل بمقدار ثلثي همذان، كثيرة الزروع والثمار.

(٢) شرح التبريزي، مصر - القاهرة، المطبعة المنورية، ٢٩٦هـ، ج ١، ص ٤.

(٣) دراسة في حماسة أبي تمام، علي النجدي ناصف، مطبعة القاهرة، ١٩٥٤م، ص ٨ - ٩.

الفصل الأول

بهاء الدين الإربلي

عصره - حياته

وفيه مبحثان

– المبحث الأول: عصر الإربلي، ويتضمن ثلاثة مطالب:

- المطلب الأول: الحياة السياسية
- المطلب الثاني: الحياة الاجتماعية
- المطلب الثالث: الحياة الفكرية

– المبحث الثاني: التعريف بالإربلي، ويتضمن أربعة مطالب

- المطلب الأول: اسمه ولقبه ونسبه
- المطلب الثاني: نشأته ورحلاته العلمية
- المطلب الثالث: آثاره العلمية
- المطلب الرابع: وفاته

المبحث الأول

عصر الإبلي

المطلب الأول: الحياة السياسية:

قامت الدولة العباسية على أنقاض الدولة الأموية، إثر معارك دامية، ولما استقر الأمر للعباسيين في الخلافة، رأوا أن يتخذوا من العراق موطناً لخلافتهم، فاختار أبو جعفر المنصور^(١) بغداد عاصمة للدولة الجديدة بدلاً عن الكوفة، فقام ببنائها على شاكله المدن الفارسية والآشورية القديمة، وما لبثت بغداد أن أصبحت أهم مدينة في العالم العربي، إذ بُنيت بها مئات المساجد، وعشرات القصور الضخمة وتكاثر بها التجار والصنّاع فازدهرت بها الحياة... واستمر الأمر على ذلك حتى عهد المعتصم الذي انتقل بعاصمته إلى سامراء^(٢) شرقي دجلة بين الفرات وتكريت، وأخذ في بنائها وأمر أن تسمى "سُرْمَنْ رَأَى".

(وظل الخلفاء بعد المعتصم يقيمون بها حتى القرن الرابع الهجري إذ تحولوا منها إلى بغداد وقد كان لتحول الخلافة من دمشق إلى بغداد أثر كبير)^(٣).

لقد أحاط الخلفاء العباسيون أنفسهم بأنظمة معقدة وطرحوا ما كان معروفاً في بعض فترات الحكم السابق، من البساطة والقرب من الناس، فاتخذوا الحُجَّاب والحرس، وبالتالي الوزراء^(٤).

(١) المنصور العباسي: عبد الله بن محمد بن علي بن العباس أبو جعفر المنصور ثاني خلفاء الدولة العباسية، أو من عني بالعلوم من ملوك العرب، كان عارف بالفقه والأدب والفلسفة، كان بعيداً عن اللهو والعبث. الأعلام ج٤/، ص ١١٧.

(٢) سامراء: مدينة كانت بين بغداد وتكريت على شرق دجلة وقيل أنها بُنيت لسام فينسب إليه بالفارسية -سام رأى- وهي مدينة فارسية عتيقة نقل إليها المعتصم عاصمته وبنى فيها القصور والمساجد، وأصبحت قبلة الأنظار. الأعلام ج٣/، ص ١٧٢ - ١٧٩.

(٣) العصر العباسي الأول، د. شوقي ضيف، ط القاهرة، ١٩٨٩م، ص ١٥-١٧.

(٤) ديوان ابن الرومي: شرح الأستاذ: أحمد حسن، الجزء الأول، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت.

غلبت الطوابع الفارسية على نظم الحكم السياسية والإدارية على الدولة العباسية، فتوسع الخلفاء في محاكاة الدواوين الفارسية، فكان في كل ولاية ديوان للخراج، وديوان الرسائل الذي لعب دوراً خطيراً في نهضة النثر العربي، وكانت تصدر عنه رسائل الخلفاء، وبجواره ديوان الخاتم الذي تختم فيه تلك الرسائل بعد مراجعتها، وديوان التوقيع وهو خاص بالنظر في المظالم، وكان من عادة ملوك الفرس ووزرائهم أن يوقعوا عليها بعبارات موجزة بليغة فجاراهم خلفاء بني العباس ووزرائهم في هذا الصنيع^(١).

المطلب الثاني: الحياة الاجتماعية:

إن أهم ما يلفت الانتباه الثراء الفاحش الذي ينعم به كثير من الناس وانقسم المسلمون إلى شيع وطوائف وتعرض المجتمع الإسلامي إلى التفكك والتنازع، فانغمس العباسيون في الترف والبذخ، فزاد العمران وشيدت القصور، وتدفقت أموال الخراج والفيء على الدولة، بفضل اتساع رقعتها ووفرة الموارد الاقتصادية، فنجد قصور الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة كانت مضرب المثل في رونقها وبهائها، كما امتازت بفخامة بنائها واتساعها وما يكتنفها من حدائق غناء، وأشجار متشابكة، وازدانت بالمنظر الثمينة والزهرية الخزفية والتربيعة المرصعة والمذهبة^(٢).

وكان العباسيون في العراق، والطولونيون والفاطيون في مصر والأمويون في الأندلس ينفقون في سبيل رفاهيتهم، ويعيشون عيشة قوامها البذخ والإسراف وحب الظهور لذلك (حفلت قصور الخلفاء والأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة بالمغنيين والموسيقيين وأصبحت مجالسهم آية من آيات الروعة والجمال... على الرغم من الضعف في الدولة في الآونة الأخيرة، كانت مجالس الخلفاء مكاناً للطرب والغناء ويحضرها الشعراء والأدباء)^(٣).

(١) العصر العباسي الأول، شوقي ضيف، ج ١، ص ٢١-٢٢، دار المعارف، مصر - القاهرة.

(٢) نفس المصدر السابق، ج ١، ص ١٥.

(٣) تاريخ الإسلام السياسي والديني، ج ٣، ص ٤٢٢ - ٤٢٥.

كما نجد أن الخلفاء وغيرهم، اقتنوا في داخل قصورهم الجواري الحسان والغلمان واتخذوا الفاخر من الثياب والأثاث، وبالغوا في أنواع الأطعمة والأشربة، واكتظت مواعدهم بعشرات الأصناف من الأطعمة والأشربة.

كل هذا لم يكن من عادات العرب والمسلمين من قبل وإنما كانت دخيلة وذلك لأن المجتمع يتألف من عدة عناصر، العرب والفرس والمغاربة، وظهر العنصر التركي في عهد المعتصم^(١) حتى أصبح خطراً يهدد الخلفاء.

المطلب الثالث: الحياة الفكرية:

لقد عاش صاحب بهاء الدين الإربلي في عصر الدولة العباسية التي تميزت بالكثير من المحاسن والمكارم فازدهرت أسواق العلم والأدب، وعظمت شعائر الدين خاصة وأن الحياة آمنة، والأمن مستتب، وما زال الحال على ذلك حتى أواخر الدولة العباسية. وأهم مميزات هذا العصر يمكن تلخيصها في الآتي:

زاد عدد الشعراء فيه على عددهم في كل عصر قبله لشيوع العلم واتساع دائرة الدولة الإسلامية (فقد كانت الدولة العباسية تمتد من حدود الصين وأواسط الهند شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، ومن المحيط الهندي والسودان جنوباً، إلى بلاد الترك والروم شمالاً... وكان يعيش فيها شعوب متباينة في الجنس واللغة والثقافة، وقد مضت هذه الأجناس تتصهر في الوعاء العربي حتى عدن كأنها جنس واحد)^(٢).

اتسعت دائرة الدولة فانتشروا في أطرافها بعد أن كانوا منحصرين في بغداد فأصبحت طائفة منهم في خراسان وتركستان والأهواز ومصر والمغرب والأندلس وسائر الأنحاء.

(١) المعتصم العباسي: محمد بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور أبو إسحاق المعتصم، أعظم خلفاء الدولة العباسية، فتح عمورية من بلاد الروم وبنى مدينة سامراء، اشتهر بالقوة. الأعلام، ج/٨، ص ١٤٩.

(٢) العصر العباسي الأول، د. شوقي ضيف، ط القاهرة، ١٩٨٩م، ص ١٩.

(وإن ظلت الأفضلية لشعراء الشام والعراق وظهرت منهم طبقة
الأمراء والوزراء والقضاة وسائر وجوه الدولة، وأصحاب الثراء، كما قرض
الشعر كثير من الفقهاء والعلماء والفلاسفة والأطباء)^(١).

كما امتاز هذا العصر بنضج العلوم على الإجماع وفيه تكونت المعاجم
اللغوية، ونضجت الفلسفة وظهرت رسائل أخوان الصفاء وفي جملتها آراؤهم
في أصل الموجودات وتدرجها في الخلق وفي البسائط والمركبات، فاتسع
خيال الشعراء، وظهر الشعر الفلسفي المبني على النظر والاختيار، ثم تكون
الانتقاد الشعري والأدبي واستقرت أبواب الشعر، وظهرت الروايات
والقصص الحماسية والخيالية واستقرت قواعد الطبيعيات والطب، ونما فن
التاريخ والجغرافيا وتفرع منهما علم معرفة الأوائل، وظهر كتاب الفهرست
لابن نديم^(٢)، وهو من أهم مصادر تاريخ اللغة إلى هذا العهد.

(وكثر في هذا العصر المكتبات الكبرى في مصر والعراق والأندلس
وغيرهم، تضم المكتبة مئات الألوف من المجلدات، وفتحت أبوابها لطلاب
العلم في سائر العلوم القديمة من فقه ونحو ولغة وتاريخ وغيرها، ومن هذه
المكتبات دار الحكمة)^(٣).

(وفي هذا العصر وضعت في اللغة العربية أسس كل
العلوم تقريباً، وُضع تفسير القرآن وُجُمع الحديث ووضعت
علومه، ووضعت علم النحو، وألف فيه سيبويه^(٤) كتابه الخالد، ووضع

(١) تاريخ آداب اللغة العربية: جرجي زيدان، علق عليها وراجعها د: شوقي ضيف، ج ١، دار الهلال،
ج/٢، ص ٢٤٧.

(٢) ابن النديم: محمد بن إسحاق أبو الفرج بن أبي يعقوب النديم، وهو بغدادى الأصل كان وراقاً يبيع
الكتب، وكان معتدلاً متشيعاً يسميه أهل السنة الحشوية ويسميه الأشاعرة المحيرة، من أشهر كتبه
الفهرست. الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين، ت خير الدين
الزركلي، ط/٣، دار العلم للملايين، ج/٢، ص ٢٣٥.

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية، ج/٢، ص ٢٤٣.

(٤) سيبويه: هو عمرو بن عثمان بن قنبر الحارسي بالولاء أبو بشر الملقب بسيبويه، إمام النحاة وأول
من بسط علم النحو، ولد في إحدى قرى سبراز سنة ١٤٨هـ - ٧٦٥م وهناك خلاف في مكان وسنة
وفاته. الأعلام، ط/٣، ج/٥، ص ٥٨.

الخليل^(١) كتب اللغة والعروض، ودُونت أشعار العرب في المعلقات، ودُون الفقه والتاريخ، وترُجمت كتب الفلسفة، وما جاء بعد هذا العصر من علوم إنما هو توسيع لهذه العلوم^(٢).

وقد ساعدت عدة عوامل في هذا العصر على ازدهار الشعر العربي ازدهاراً رائعاً، فظهرت المناهج الجديدة في معانيه وأخيلته وأساليبه، فانكب الشعراء على العربية بفنونها ويتمثلون تمثلاً دقيقاً في أسلوب مصفى يجمع بين الجزالة والرصانة، فقد تأثروا بالثقافات المترجمة وما كانوا يستمعون إليه من محاورات المعتزلة، مما أثار في عقولهم كثيراً من المعاني والخواطر ودفعهم إلى التطور بموضوعات الشعراء الموروثة تطوراً يواكب روح العصر وخصب الفكر ورهافة الشعور، فأضافوا عليها موضوعات جديدة.

إضافة إلى اختلاف صور الحياة، وقيم الأشياء في الدولة العباسية عن نظائرها في الحياة الجاهلية، ففضائل العرب في الجاهلية لم تعد في نظر الذين عاشوا في العصر العباسي مما يتغنى بها إضافة إلى تشجيع الخلفاء والأمراء، وكبار رجال الدولة للشعراء (ولهذا كان الإغراق في المدح من أهم مميزات الشعر في هذا العصر، فقد كانت لسيف الدولة الحمداني^(٣) ندوة حفلت بالأدباء والشعراء والفلاسفة الذين يقصدونه من كل صوب، وساعدت الندوة على ارتقاء الشعر العربي وتوسيع دائرته وقد تخرج فيها كثير من علماء هذا العصر، كما ساعد كرم سيف الدولة وتشجيعه للأدباء على رقي الشعر في بلاطه^(٤).

(١) الخليل: هو الخليل بن أحمد بن تميم الفراهيدي الأزدي الحموي، من أئمة اللغة والأدب، واضع علم العروض ولد ومات بالبصرة سنة ٧١٨ - ٧٨٦هـ، من أشهر كتبه: العين وتفسير اللغة، وكتاب العروض فهو أول من ألف كلام العرب على الحروف. الأعلام، ط/٤، يناير ١٩٧٩م، ج/٢، ص ٣١٤.

(٢) ضحى الإسلام: أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ط/١٠، ١٩٣٥م، ج/٢، ص ١٣.

(٣) سيف الدولة الحمداني: هو علي بن عبد الله بن حمدان التغلبي صاحب المتنبى وممدوحه، ولد وتوفي في ميارفاربيقت ٩١٥ - ٩٩٧م نشأ شجاعاً مهذباً وملك الشام ودمشق وحلب سنة ٣٣٣هـ وكان كثير العطايا، مغرباً لأهل الأدب يقول الشعر الجيد، وقيل ما اجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع بابا سيف الدولة من شيوخ العلم ونجوم الدهر. الأعلام، ط/٤، ج/٤، ص ٣٠٣ - ٣٠٤.

(٤) سيف الدولة الحمداني: مصطفى الشكعة، ط دار القلم، ص ٨٠ - ٨٦.

المبحث الثاني

التعريف بالإربلي

المطلب الأول: اسمه ولقبه ونسبه:

هو أبو الحسن بهاء الدين علي بن عيسى بن أبي الفتح الإربلي، المنشأ الكاتب البارع.

كان أبوه عيسى فخر الدين حاكماً قال ابن الغوطي: (فخر الدين أبو علي عيسى بن أبي الفتح بن هندي الشيباني الإربلي الأمير يُعرف بابن ججني هو والد شيخنا بهاء الدين، كان حاكماً بإربل ونواحيها أيام صاحب تاج الدين أبي المعالي، وتوفي بإربل* في سنة أربع وستين وستمئة، ورثاه جماعة من أهل بغداد منهم شيخنا شمس الدين أبو المناقب محمد بن أحمد الحارثي الهاشمي الكوفي بقوله في قصيدة طويلة...)^(١).

لَقَدْ كَانَ فَخْرُ الدِّينِ بَحْرَ فَضَائِلٍ * وَلَمْ نَرَ بَحْرًا قَبْلَهُ ضَمَّهُ الْقَبْرُ
كَرِيمُ السَّجَايَا هَذَّبَ الْجُودُ نَفْسَهُ * عَلَى أَنْ تَسَاوَى عِنْدَهُ التُّرْبُ وَالتَّبَرُ^(٢)

المطلب الثاني: ميلاده نشأته رحلاته العلمية:

لم تحدد لنا المصادر تاريخ ميلاد صاحب بهاء الدين الإربلي. أما عن نشأته فأغلب الظن أنه نشأ بإربل المدينة التي وُلد فيها، لقد علمنا بأن والده كان حاكماً بإربل ونواحيها وأنه توفي فيها. أما عن رحلاته العلمية أيضاً فلم نجد في المصادر والمراجع ما يدل على أنه تنقل عبر البلدان طلباً للعلم، ولكن الذي وقفنا عليه من خلال تاريخ إربل^(٣) نجد أن إربل هذه مدينة قديمة، شهدت نهضة علمية شاملة في القرنين

* الإربلي: نسبة إلى إربل في شمال العراق.

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ١٩.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ١٩.

(٣) تاريخ إربل: ابن المستوفي، تحقيق سامي بن السيد محاسن الصقار، نشر وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، الجمهورية العراقية، سلسلة كتب التراث، ١٩٨٠م، ص ٩٩-١٠٠.

السادس والسابع، فتردد عدد كبير من العلماء عليها، فريق وُلدوا في أرضها وانتشروا بعد ذلك في آفاق العالم الإسلامي، وفريق وفد ليأخذ العلم من هؤلاء الأئمة والعلماء.

هذا إضافة إلى قرب إربل من مراكز النشاط العلمي مثل الموصل وشهوزور وغيرهما من البلدان القريبة.

ونذكر من علماء إربل على سبيل المثال، ابن المستوفي المتوفى سنة ٦٣٧هـ- وقاضي القضاة بدر الدين يوسف السنجاري المتوفى بالقاهرة سنة ٦٧٣هـ- والعالم طه بن إبراهيم بن أبي بكر الهذباني المتوفى بالقاهرة سنة ٦٧٧هـ.

من خلال هذا السرد لتأريخ إربل وعلمائها نرجح بأن صاحب بهاء الدين أخذ العلم عن هؤلاء الأئمة والعلماء في داخل إربل.

المطلب الثالث: آثاره العلمية:

لا بد لعالم مثل صاحب بهاء الدين الإربلي أن تكون له مجموعة من المؤلفات في شتى صنوف العلم، وهذه المؤلفات أوردتها كتب التراجم، ومؤلفاته هي:

- ١- التذكرة الفخرية: الكتاب الذي قام الباحث بدراسته.
- ٢- جلوة العشاق وخلوة المشتاق: ما زال مخطوطاً، ومنه نسخة في دار الكتب الوطنية بباريس.
- ٣- رسالة الطيف: وهي مطبوعة ببغداد ١٩٦٨م.
- ٤- كشف الغمة في معرفة الأئمة: وهو مطبوع أكثر من مرة، وقد جردت من هذا الكتاب تراجم الأئمة زين العابدين، ومحمد الباقر وجعفر الصادق، وطبعت مستقلة في كتابين:
 - أ- حياة الإمامين زين العابدين ومحمد الباقر. النجف ١٩٥١م.
 - ب- حياة الإمام جعفر الصادق- النجف ١٩٥١م.
- ٥- المقامات الأربع: وهي البغدادية والدمشقية الحلبية والمصرية.
- ٦- نزهة الأخيار في ابتداء الدنيا وقدر القوى الجبار.

شعره:

للإربلي شعر كثير وديوانه لا زال مخطوطاً، وله شعر كثير في كتابيه التذكرة الفخرية، ورسالة الطيف لم يوجد في ديوانه المخطوط، وله شعر في مديح آل البيت ضمنه كتابه (كشف الغمة في معرفة الأئمة) ويغلب على شعره التكلف والصنعة.

المطلب الرابع: وفاته:

تولى بهاء الدين الإربلي رئاسة الكتاب في ديوان متولي إربل تاج الدين بن الصلايا قبل سنة ٦٦٠هـ. وهي السنة التي وصل فيها بغداد كما ذكر في كتابه التذكرة الفخرية قال: (وحيث وصلت بغداد في شهر الله الأصم رجب سنة ستين وستمائة) ففي هذه السنة انتظم في خدمة صاحب بهاء الدين الجويني.

استمر بهاء الدين في خدمة الجويني حتى عام ٦٨٧هـ حيث ترك كتابة الإنشاء بعد تسلط اليهودي سعد الدين بن الصفي على دست الوزارة. قال ابن شاکر الكتبي^(١): (ثم إنه فتر سوقه في دولة اليهود، ثم تراجع بعدهم وسلم ولم ينكب إلى أن مات سنة اثنين وتسعين وستمائة).

كانت وفاته ببغداد ودفن في داره المطللة على نهر دجلة وخلف لما مات تركه عزيمة بنحو ألفي دينار، تسلمها ابنه أبو الفتح ومحققها صعلوكاً^(٢). وأبو الفتح هو تاج الدين محمد بن علي بن عيسى كان شاعراً، روى عن أبيه كتاب (كشف الغمة في معرفة الأئمة) قال عنه ابن شاکر: كان صاحب تجمل وحشمة ومكارم. وقال الأردفودي: كان كريماً متواضعاً وله مجلس ببغداد يجلس فيه طرفي النهار، ويجتمع عنده الفضلاء وتجرى بينهم بحوث في أنواع العلوم^(٣).

(١) فوات الوفيات، ج/٣، ص ٥٧.

(٢) المصدر نفسه، ج/٣، ص ٥٧ - ٥٨.

(٣) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٠.

الفصل الثاني

التعريف بكتاب التذكرة الفخرية

يتضمن ثلاثة مباحث

- **المبحث الأول:** غرض كتاب التذكرة الفخرية وموضوعه وموارده
- **المبحث الثاني:** ترتيب الكتاب وتبويبه
- **المبحث الثالث:** أثر المصنفات السابقة في الكتاب

المبحث الأول

غرض كتاب التذكرة الفخرية وموضوعه وموارده

المقدمة:

لكل أمة من الأمم تراث توارثها الأبناء عن الآباء والأجداد، بغرض الوقوف على مآثرهم وجوانب حياتهم المختلفة والتمسك بقيمهم الفاضلة ليكون حافزاً ودافعاً للأجيال للابتكار والتجديد.

وللأمة العربية والإسلامية موروث ضخم من الثقافات في شتى ضروب العلم والمعرفة، إذ يُعد الاهتمام بالأدب من أهم ملامح تأريخ هذه الأمة؛ ولكن عبر العصور ومع التحولات الاجتماعية والسياسية ضاع من هذا التراث الكثير والكثير، مما دفع مجموعة من العلماء وأئمة اللغة من النهوض والقيام لجمع ما تبقى من هذا الإرث وتدوينه، ويؤكد هذا ابن سلام في كتابه طبقات فحول الشعراء بقوله: (فلما كثر الإسلام، وجاءت الفتوح، واطمأنت العرب بالأمن، راجعوا رواية الشعر، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب وألفوا ذلك، وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقل ذلك، وذهب عليهم منه كثير)^(١).

وبما أن الشعر العربي هو المصدر الأول لقراءة أحداث الماضي والتعرف على الحياة الاجتماعية، فقد انقسم أئمة اللغة إلى ثلاث مجموعات، مجموعة أرخت الشعراء في موسوعات ضخمة كما فعل ابن سلام وابن المعتز وغيرهم، أما المجموعة الثانية فقامت بجمع أشعار المتقدمين كما فعل الأصمعي والسكري وثعلب وغيرهم. والمجموعة الثالثة جمعت ما تنثر من أشعار في مؤلفات أو مجاميع تميزت بطابع الاختيار الشخصي للمؤلف مثل حماسة البحري والأصمعيات وجمهرة أشعار العرب... الخ. وكتاب التذكرة الفخرية يُعد من بين هذه الاختيارات.

(١) طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام، مصر - القاهرة، دار النشر، ص ٢٥-١.

لقد جمع الإربلي في مؤلفه هذا مجموعة ضخمة من أشعار من عاصرهم في تلك الفترة، بالإضافة إلى قليل من أشعار المتقدمين. لقد اختار الإربلي في كتابه هذا أشعاراً لشعراء لم نقف على دواوينهم وتراجمهم في كتب التراجم التي وصلتنا حتى اليوم. ومن خلال الدراسة لهذا الكتاب نجد أن الإربلي أديب وشاعر وناقد، بل نجد أن هذا المؤلف كان حافزاً ودافعاً له لتأليف قصائد رائعة في كافة أغراض الشعر، لأنه كان كثيراً ما يفعل وينظم وهذا دليل على غزارة علمه ووعيه التام بفنون الأدب والشعر، كما نجده يقدم لكل باب من أبواب الكتاب بمقدمة يظهر فيه براعته الأدبية والفنية.

أما بشأن تأليف هذا الكتاب يقول بهاء الدين: "وكان من منتهما التي أكرر صفاتها وأرددها، أن عرفت في خدمتهما الملك المعظم فخر الدولة والدين وجمال الإسلام والمسلمين منوَجهر بن أبي الكرم الهمذاني... طلب مني أن أجمع له مجموعاً مشتملاً على معانٍ من الأشعار ولُمع من محاسن الأخبار ليشرفه بمطالعه وينوب عن حضوري إذا غبت عن خدمته... استخرت الله في جمع هذا المجموع، وجعلته أوصافاً وسميته التذكرة الفخرية والتزمت بشرح ما يعرض في أثناءه من كلمة لغوية أو معنى يحتاج إلى إيضاح"^(١).

موارد الكتاب:

لقد قام مؤلف التذكرة الفخرية بهاء الدين الإربلي بجمع هذه الاختيارات أو المجاميع الشعرية التي حفل بها كتابه التذكرة الفخرية من عدة مصادر هي:

أولاً: دواوين الشعراء.

ثانياً: إنشاد أصحابه لشعرهم أمامه أو في حضرته.

ثالثاً: ما نُقل إليه من الأشعار.

رابعاً: شعره.

(١) كتاب التذكرة الفخرية، ص ٤١ - ٤٢ - ٤٣.

المبحث الثاني

ترتيب الكتاب وتبويبه

لقد قسمَ الصاحب بهاء الدين الإربلي كتابه إلى:

* المقدمة:

ذكر فيه أهمية الشعر وخطورته، وأن بيتاً واحداً من الشعر قد يرفع من قدر القبيلة ويجعل لها مكاناً سامقاً بين القبائل، فمثلاً لقد كان بنو أنف الناقة يعيرون بهذا الاسم ولكن عندما مدحهم الحطيئة بهذا البيت عاد ذلك الهجاء مديحاً ورفع من شأنهم:

قَوْمٌ هُمْ الْأَنْفُ وَالْأَذْنَابُ وَغَيْرُهُمْ * وَمَنْ يُسَوِّي بَأَنْفِ النَّاقَةِ الذَّنْبَا^(١)

كما ذكر في المقدمة أيضاً أن الخلفاء والتابعين والأمراء كانوا كثيراً منا يستشهدون بالشعر في كثير من المواقف، وكانت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تتمثل بهذه الأبيات بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم.

يا عين بكى عند كل صباح * جُودي بأربعة على الجراح

قد كنت ذات حمية ما عشت لي * أمشي البراح وكنت أنت سلاحي^(٢)

لكل اجتماع من خليليني فرقة * وكل الذي بعد الفراق قليل

وإن افتقادي فاطمة بعد أحمد * دليل على أن لا يدوم خليل^(٣)

الفصل الأول: وصف في الشباب والخضاب والمشيب:

جمع الإربلي في هذا الفصل أجمل ما قيل من شعر في الشباب وكيف أن الشعراء طولوا في وصفه، حيث اللهو والملذات والخيال. ثم عرج إلى شعر الخضاب وهو التحايل على إبقاء الشباب، ثم المشيب وكيف أن الشعراء بكوا طويلاً في هذه الفترة على زمن الشباب.

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشي، ص ٣٢.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٤٠.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٤٠.

الفصل الثاني: وصف في الغزل والنسيب:

وهذا الفصل من أطول فصول التذكرة الفخرية، لقد ذكر فيه الإربلي مجموعة ضخمة من أشعار المتقدمين وأشعار معاصريه، وأتى في هذا الفصل وبعض الفصول الأخرى بشعراء لا توجد أشعارهم في دواوين الشعر المتداولة.

الفصل الثالث: وصف في الخمر وما يتصل بها:

أما في هذا الفصل فجمع الإربلي مجموعة من الأشعار التي قيلت في وصف الخمر والندامى والغلمان والساقيات، وألوان الخمر والحانات وكيف أن الشعراء بذلوا الغالي والنفيس لاقتنائها.

الفصل الرابع: وصف في الغناء وما يتعلق به:

في هذا الفصل ذكر الإربلي مجالس الغناء والطرب واللهو، حيث يكون الغناء مكملاً للخمر والبذل فجمع فيه رائق الأشعار وأجمله.

الفصل الخامس: وصف في الربيع وأزهاره وما يلزمه:

في هذا الفصل أتى الإربلي بأجمل ما قيل في الربيع والأزهار وتغريد الطيور حيث الجداول المتسلسلة والورود والخضرة والأنهار الدفاقة.

الفصل السادس: وصف في السحاب والغيث والبرق وما يتصل بذلك:

وهذا الفصل في أشعاره يقترن بالربيع ولكن في بعض الأحيان يفصل بعض الجوانب التي لم تفصل في فصل الربيع.

الفصل السابع: وصف في الليل والنجوم والمجرة وما يتصل بذلك:

لقد أتى الإربلي في هذا الفصل ببديع الأشعار التي قيلت في وصف الليل وتأمل النجوم حركة الكواكب حيث أجمع الشعراء في معظم أشعارهم في هذا الفصل على طول الليل حيث الأرق والسهاد وتزايد الهموم ولهم في النجوم تشبيهات عديدة وطريفة.

الفصل الثامن: وصف في المدح والفخر:

وفي هذا الفصل جمع أجمل ما قيل في المدح والفخر من العصر الجاهلي حتى العصر العباسي.

المبحث الثالث

أثر المصنفات السابقة في الكتاب

إذا تأملنا المجاميع الشعرية مثل حماسة البحتري أو المفضليات وحماسة أبي تمام، وحماسة الخالدين والأصمعيات هذه المجاميع يغلب عليها طابع الاختيار الشخصي للمؤلف.

وكتاب التذكرة الفخرية يُعد من بين هذه المجاميع الشعرية التي حفلت بتقدير الأدباء. إذ أن صنيع الإربلي في كتابه هذا لم يكن بدعة من البدع إنما سار في كتابه على منوال من تقدمه من العلماء والأدباء ولا بد في هذه الحالة أن يؤثر السابق على اللاحق.

والذي لا شك فيه أن الإربلي عندما أقدم على تأليف هذا الكتاب وضع كل كتب الاختيارات الشعرية التي سبقته أمامه، وبعد النظر والتمحيص في تلك الكتب، شرع في وضع كتابه على نهج المتقدمين وإن كان للإربلي بعض النفس الخاص به.

ويظهر أثر المصنفات السابقة في الكتاب فيما يلي:

أولاً: الترتيب: لقد جرى الإربلي على نمط المتقدمين في تقسيم الأغراض الشعرية (غزل، مدح، رثاء، فخر... الخ). ويظهر أثر البحتري في حماسته أكثر من غيره في الكتاب.

ثانياً: يظهر أثر المتقدمين بوضوح تام وذلك عندما ينفعل الإربلي ببعض الأبيات التي يوردها للشعراء فمن باب الإعجاب أو الاستدراك يقوم الإربلي بنظم بعض الأبيات على منوال المقطوعة التي أوردها.

ثالثاً: تأثر الإربلي بمن تقدمه في العبارات النقدية، فقد حاكى بعض المتقدمين في نقد الأشعار باستحسانها أو استهجانها.

رابعاً: قام الإربلي بشرح غريب الألفاظ على النحو الذي فعله من تقدمه من صنّاع المجاميع الشعرية.

الفصل الثالث

القيم الأدبية في كتاب التذكرة الفخرية

يتضمن أربعة مباحث

– المبحث الأول: الغزل

- المطلب الأول: الطيف
- المطلب الثاني: الوقوف والبكاء
- المطلب الثالث: طول الليل
- المطلب الرابع: طيب الثغر

– المبحث الثاني: وصف في الشباب والمشيب والغناء

يتضمن أربعة مطالب:

- المطلب الأول: وصف في الشباب والمشيب
- المطلب الثاني: ما قيل في ذم الشباب والخضاب
- المطلب الثالث: وصف في الغناء
- المطلب الرابع: ما قيل في ذم بعض المغنيين

– المبحث الثالث: وصف في الربيع والرياح والأزهار

يتضمن أربعة مطالب:

- المطلب الأول: الربيع
- المطلب الثاني: الرياح
- المطلب الثالث: الشقائق
- المطلب الرابع: النرجس

– المبحث الرابع: وصف الخمر والمدح والفخر

ويتضمن ثلاثة مطالب:

- المطلب الأول: وصف في الخمر ومجالسها
- المطلب الثاني: ما قيل في ذم الخمر
- المطلب الثالث: وصف في المدح والفخر

المبحث الأول

وصف في الغزل

الغزل غرض من أغراض الشعر العربي، فالشعراء منذ العصر الجاهلي وحتى العصر الإسلامي يستفتحون قصائدهم بالوقوف على الأطلال وذكر المحبوبة والتغزل ثم بعد ذلك يخلصون إلى الغرض المطلوب، مع مراعاة العادات والتقاليد السائدة في ذلك الوقت، وقد أثبت الشعر في العصرين الجاهلي والإسلامي، أن كل شاعر صرّح باسم محبوبته في شعره حُرّم الزواج منها، مثل ما حُرّم قيس بن ذريح^(١) من معشوقته.

والشعراء العباسيون ساروا على نهج القدماء في بادئ الأمر، ولكن بعد اتساع الدولة العباسية والانفتاح على الدول الأجنبية والاطلاع على ثقافتها، إضافة إلى الترف والبذخ في ذاك العصر، كل هذا أدى إلى تحول ملحوظ في الغزل وأسلوبه خاصة عندما اكتظت المدن العباسية بالجواري والمغنيات وساقيات الخمر وما إلى ذلك. يقول صالح آدم بيلو في كتابه الثقافات الأجنبية وصداها في الأدب: (وانفتاح الدولة العباسية على بلاد فارس والروم، أدى إلى كثرة الجواري وشيوعهن حتى سطون على عرش الحرائر، كما ظهرت القينة التي دربها سيدها على الأدب والشعر والغناء والموسيقى والرقص وفنون الإغراء والإغواء... تشاركهم فنون الأدب وتطارحهم أفانين الشعر، وتتبادل معهم مفضوح الغزل، وتتظم في ذلك ما ينظمون)^(٢).

(١) قيس بن ذريح بن سنة بن خزيمة الكناني، من شعراء العصر الأموي، اشتهر بحب لبنى بنت الحباب، له ديوان شعر. معجم المؤلفين، ج٢، ص ٦٦١.

(٢) الثقافات الأجنبية في العصر العباسي وصداها في الأدب، صالح آدم بيلو، مكة المكرمة، ١٩٨٨م، ص ٢٥٦.

المطلب الأول: الطيف:

من الأحاديث التي ترتبط بالغزل كثيراً ولا تتعزل عنه في أشعار الشعراء العشاق، الحديث عن الطيف، لما بين الغزل وذكر المحبوبة وغيابها من ارتباط وثيق، فإن لم يكن يراها حقيقة في صورة حتماً سيلاقها في منامه ويستأنس بها دون رقيب ويذكر محاسنها.

البحثري^(١) يقول: إنَّ المحبوبة وإنْ بخلت عليّ بوصلها وملاقاتها، فإنني أجد الراحة التامة في خيالها الذي كم أرقني، وكم من ليالٍ نلتقي فيها لو علم الواشون لعز عليهم، ويغمض شاعرنا عينيه تعلقاً بهذا الطيف الزائر عندما يذهب عنه النعاس فيقول:

وإنِّي وإنْ ضنَّتُ عليّ بوَدِّها * لأرتاحُ منها للخيالِ المؤرَّقِ
يعزُّ على الواشين لو يعلمونَهَا * ليالٍ لنا نَزْدَارُ فيها ونَلْتَقِي
فكم غُلَّةٌ للشوقِ أطفأتُ حرَّها * بطيفٍ متى يَطْرُقُ دُجَى الليلِ يطرُقُ
أضُمُّ عليه جَفَنُ عيني تَعْلَقاً * به عند إجلاءِ النُّعاسِ المُرْنَقِ^(٢)

وعندما يشتد بالبحثري الوجد تأتيه صورة محبوبته، وعندما يرى منها أشياء لا يشاهدها عندما يلتقيها حقيقة، وكذلك يسمع منها حديثاً حلواً لذيذاً لا تسمعه هي، فقط يكفيه من هذا الطيف أنه تُردُّ به نفسه الملهوفة:

بلى وخيالٌ من أثيلةٍ كلَّما * تأوَّهتُ من وجدٍ تعرض يَطْمَعُ
إذا زورةٌ منه تقضَّتْ مع الكرى * تنبَّهتُ من وجدٍ له أتفرعُ
ترى مقتلتي ما لا ترى في لقائه * وتسمعُ أذني رجْعَ ما ليس تسمعُ
ويكفيك من حق تخيُّل باطلٍ * تُردُّ به نفسُ اللهيفِ فترجعُ^(٣)

الكرى يهدى له خيالها فيشفيه من شدة الوله والعذاب، ويتعجب كيف أنه يتعذب في اليقظة وينعم ويرتاح برويتها أثناء رقاذه:

(١) البحثري: الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي، أبو عباده البحثري، يُقال لشعره سلاسل الذهب كان أعظم شعراء عصره، له ديوان شعر وكتاب الحماسة، وكتب الأمدى (الموازنة بين أبي تمام والبحثري) وللمصري (عبث الوليد). الأعلام، ج/٨، ص ١٢١.

(٢) كتاب التذكرة الفخرية، بهاء الدين المنشيء، ص ٦٨.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٦٨.

إذا ما الكرى أهدى إليّ خياله * شفى قلبه التبريح أو نقع الصدا
 إذا انتزعت من يدي انتباهة * عدت حبيباً راح مني أو غدا
 ولم أر مثلينا ولا مثل شأننا * نَعَذَّبُ أَيْقَظاً وَنَنَعُمُ هَجْداً^(١)
 وقد قيل إن الحيص ببص دخل على أبي المظفر يحيى بن هبيرة
 الوزير وهو ينشد:

زار الخيال نحيلاً مثل مُرْسَلِهِ * فما شفاني منه الضمُّ والقُبْلُ
 وما زارني قط إلا كي يُوافقتي * على الرقاد فينفيه ويرتحل^(٢)
 والوزير يقول: هذا والله التام وفوق التام لا بل التام جزء منه. فقال
 الحيص ببص: يا مولانا له تمام فقال انظر ما نقول. قال: نعم بشرط أن يعيده
 الوزير، فأعاده وقال:

وما درى أن نومي حيلة نصبت * لصيده حين أعيا اليقظة الحيل^(٣)
 فأجازه أبو المظفر وأحسن صلته.
 أما الأعرابي^(٤) فيقول: أرسلت إليّ تعاتبني حينما أخبرها الواشون
 بأني أكثر من الرقاد لأنعم برؤيتها:

وخبرها الواشون أن خيالها * إذا نمت يغشى مضجعي ووسادي
 فخبرها فرط الحياء فأرسلت * تعاتبني غضبي لطول رقادي^(٥)
 وهذا الشاعر يسدى للأحلام الشكر الجزيل لأنه نال ما يصعب عليه
 نواله في اليقظة يقول مهيأ بن مرزويه:

في الظباء الماضين أمس غزال * قال عنه ما لا يقول الخيال
 لم يزل يخدع البصيرة حتى * سرنى ما يقول وهو محال

(١) كتاب التذكرة الفخرية، بهاء الدين المنشيء، ص ٦٨ - ٦٩.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٧١.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٧١.

(٤) محمد بن زياد بن الأعرابي، كان عجباً في معرفة اللغة والأنساب كان يقول: في الليلة التي مات فيها أبو حنيفة ولدت. له مجموعة من الكتب منها: النوادر، الخيل، الأنواء، معاني الشعر وغير ذلك، توفي بسر من رأي سنة ٢٣١هـ. الوافي بالوفيات، ج ٣، ص ٧٩.

(٥) نفس المصدر السابق، ص ٦٩.

لا عدمتُ الأحلامَ كم نولتني * من عزيزٍ صعبٍ عليه النوال^(١)

يقول صاحب بهاء الدين الإربلي: الناس عيال على قيس بن الخطيم^(٢) في قوله حين وصف طيف محبوبته وأجاد في ذلك أيما إجادة.

الشاعر سعيد بذلك الطيف عندما أعياه اللقاء في الواقع ولكن سرعان ما يفيق من ذلك اللهو الكاذب.

أنى سربتِ وكنتِ غير سرور^(٣) * وتقربُ الأحلامُ غيرَ قريبٍ

ما تمنعي يقظي فقد توتينهُ * في النوم غير مُصرّدٍ محسوب^(٤)

كان المُنَى بلقائها فلقيتها * فلهوتُ من لهو امرئٍ مكذوب^(٥)

ويقول جرير^(٦) في ذات المعنى:

أنتسى إذ تودعنا سُليمي * بفرع بشامةٍ سقيَ البشام^(٧)

بنفسي من تجنبه عزيزُ * عليٍّ ومن زيارته لِمَامُ

ومَنْ أُمسى وأصبح لا أراه * ويطرقني إذا هَجَعَ النيام^(٨)

أما صاحب بهاء الدين الإربلي فيقول مستحسناً الأبيات التي قالها ابن التعاويذي^(٩): فهذه غاية ما فوقها غاية، وله أن يحمل على الشعراء في هذا ألف رآيه:

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٦٩.

(٢) قيس بن الخطيم، هو قيس بن ثابت بن عدي بن عمر بن سواد بن ظفر، يكنى بأبي زيد، شاعر مجيد من الناس من يفضلوه على حسان بن ثابت شعراً. معجم الشعراء، للمرزباني، ص ١٩٦.

(٣) غير سرور: غير مُبعد.

(٤) مُصرّد: مُقلّل.

(٥) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٦٦.

(٦) جرير هو: أبو حرزة بن عطية الخطفي التميمي، الشاعر المشهور كان من فحول شعراء الإسلام، وكانت بينه وبين الشاعر الفرزدق مهاجرة ونقائض توفى سنة ١١١هـ. وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣٠١.

(٧) البشام: شجر طيب الريح يُستاك به.

(٨) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٦٦-٦٧.

(٩) ابن التعاويذي: أبو الفتح محمد بن عبيد الله، ولد سنة ٥١٩هـ وتوفى سنة ٥٨٣هـ. كان كاتباً لديوان المقاطعات في بغداد. عمى آخر عمره سنة ٧٩ وله في عماء أشعار كثيرة يرثى بها عينيه، جمع ديوانه بنفسه قبل عماء.

قالتُ أَتَقْنَعُ أنْ أزورك في الكرى * فتبیتُ في حُلْمِ المنامِ ضَجِيعي
وأبيكَ ما سَمَحْتُ بطيفِ خيالِها * إلا وقد ملكتُ عليَّ هُجوعي^(١)

هذا الشاعر يشكو قصر الليل ويتمنى أن يطول ويمكث حتى ينعم
بخيالها يقول الشيخ ظهير الدين الإربلي^(٢):

لله طيفُك ما أشدَّ حِفَاطَه * يُوفى بعهدِ أخي الحفاظِ وينكثُ
ليلي بزورته كخطفةِ بارق * يا ليت ليلى حين يطرقُ يمكثُ
لي كلِّما وافى على كبدي يدٌ * ويدٌ بأذيال الدُّجى تتشبثُ^(٣)
المطلب الثاني: الوقوف والبكاء:

إذا ارتحلت الحبيبة عن ديارها، لم يجد الشاعر سوى الربع الخالي
يروى أرضه بدموعه حيناً ويسأل عن الحبيبة الراحلة أحياناً. ومشهد الفراق
(كما يبدو من اسمه واحد من الآفات التي تعرض للحب والمحبين، فتذهب
سرورهم وتبدد أحلامهم وتعقد مأساتهم بحبال حبهم، وخفقان قلوبهم، وتسير
بهم في طريق الحزن والأسى وهو وداع الاضطرار)^(٤).

وقال قدامة بن جعفر: "وقد يدخل في النسب التشوق والتذكر لمعاهد
الأحبة بالرياح الهابة والبروق اللامعة والحمائم الهاتفة، والخيالات الطائفة،
والآثار العافية، وأشخاص الأطلال الدائرة، وجميع ذلك إذا ذكر احتيج أن
تكون فيه أدلة على عظيم الحسرة ومعنى الأسف والمنازعة"^(٥).

ها هو زهير بن أبي سلمى^(٦) يدعو للربع بالسلام والعافية لأن هذا
الربع كان ملهى صباه وفيه أحبته فقال:

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٧٠.

(٢) محمد بن أحمد، ولد بإربل سنة ٦٠٢هـ وتوفي بدمشق سنة ٦٧٧. فوات الوفيات، ج ٣، ص ٣٠١،
الوافي بالوفيات، ج ٢، ص ١٢٣.

(٣) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٧١.

(٤) مصطفى عبد الواحد، دراسة الحب في الأدب العربي، ج ١، ص ١٣٣.

(٥) نقد الشعر، ص ٤٣.

(٦) زهير بن أبي سلمى هو: ربيعة بن رباح مرة بن الحارث المزني المغربي، شاعر جاهلي، ولد في
بلاد مزينة بنواحي المدينة. من آثاره: ديوان شعر. معجم المؤلفين، ص ٧٣٧.

ولما عرفت الدارَ قلتُ لربعها * ألا عم صباحاً أيها الربُّعُ واسلم
وفيهن ملهى لطيف ومنظر * أنيق لعين الناظر المتوسم^(١)
يتحسر الحاجري^(٢) ويتجرع مرارة الحرمان لفراق أحبابه ويتمنى أن
يهب عليه النسيم من ديار أحبته لينشق نفحاته.

نعمتُ بكم والدهرُ في غفلاته * زماناً وشملي آمن من شتاته
ولم أدْرِ ما الأحزانُ حتى بعدتُم * فقلبي موقوفٌ على حسراته
أحبابنا بالجزع هل تسمحُ النوى * بيوم يكونُ القربُ من حسناته
لقد حكمتُ فينا الليالي بفرقة * سلا بعدها المشتاق طيب حياته
يقرُّ بعيني أن يهبَ نسيمكم * فأنشق روح القرب من نفحاته^(٣)
أما هنا فيجزع ويبكي بكاءً حاراً لفراق ليلي ويشبهها بالبدر جمالاً
وبالقضب ليناً وتثنياً.

إذا بعدتُ ليلي وشطَّ مزارها * فلا نار إلا زفرتي استعارها
ومن لي أن أمسى وأرضى أرضها * عناداً لوأشيها ودارى دارها
ويا ليتني جاوزتُ أرضاً تحلها * فأحظى بما يحظى من القرب جارها
أشبهها بالبدر والغصن والنقا * وما هي إلا ظبية ونفارها
ولو أن ناراً بالمحصَّب أوقدتُ * ولى بنجدٍ قلتُ هاتيك نارها
وكيف تفيقُ النفسُ من سكرة الهوى * وأنتِ حمياها ومنك خمارها
أيا ليلُ قد أتلقتُ نفسي ترفقي * على أن قبلَ النفسِ فيك افتخارها
ألا لا أراني الله يا ليلُ ذا حشى * يقرُّ من البلوى عليك قرارها^(٤)
لقد قضى الحاجري أول شبابه في حبهم، وإذا أتى داع من ديار أحبته
وهو ميت للبي نداء ذلك الداع.

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٦٠.

(٢) الحاجري: الحسام الحاجري الإربلي شاعر مجيد، سمي الحاجري لكثرة ترداد حاجر في شعره.

قتل بإربل سنة ٦٣٢هـ. وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٥٠١.

(٣) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ١٣١-١٣٢.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ١٣١، ١٣٢.

شَرَحُ الشَّبَابِ بِحُبِّكُمْ قَضَّيْتُهُ * وَالْقَلْبُ مِنْ وَلَهِي بِكُمْ أَبْلَيْتُهُ
وَأَنَا الَّذِي لَوْ مَرَّ بِي مِنْ أَرْضِكُمْ * دَاعٍ وَكُنْتُ بِحَفْرَتِي لَبَيْتُهُ
قَالُوا حَبِيبُكَ بِالتَّجْنِي مَسْرَفٌ * قَاسٍ عَلَى الْعِشَاقِ قَلْتُ فَدَيْتُهُ
أَرُومٌ مِنْ كَلْفِي عَلَيْهِ تَخْلُصًا * لَا وَالَّذِي بِطَحَاءِ مَكَّةَ بَيْتُهُ^(١)

يقول عدي بن زيد الرقاع لولا الحياء وقد شاب رأسي لزرت أم القاسم.

لَوْلَا الْحَيَاءُ وَأَنْ رَأْسِي قَدْ عَسَا * فِيهِ الْمَشِيبُ لَزَرْتُ أُمَّ الْقَاسِمِ
وَكَأَنَّهَا بَيْنَ النِّسَاءِ أَعَارَهَا * عَيْنِيهِ أَحُورٌ مِنْ جَانِدِ جَاسِمِ
وَسَنَانُ أَقْصَدِهِ النَّعَاسُ فَرَنْقَتْ * فِي عَيْنِهِ سِنَّةٌ وَلَيْسَ بِنَائِمِ^(٢)

أما ذو الرمة^(٣) فأوقف ناقته عن المسير وبدأ يبكي بكاءً حاراً ويخاطب ربع مية حبيبته، حتى يخال إليه أن الأحجار المندثرة هنا وهناك والملاعب تتجاوب معه وتكلمه.

وَقَفْتُ عَلَى رُبْعٍ لَمِيَّةٍ نَاقَتِي * فَمَا زِلْتُ أَبْكِي عِنْدَهُ وَأَخَاطِبُهُ
وَأَسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا أَبْثُهُ * تَكَلَّمَنِي أَحْجَارُهُ وَمَلَاعِبُهُ^(٤)

ثم يقول إن رؤية الأطلال أهاجت شوقه وذكرياته الكامنة وحاول إخفاءها حياءً وإشفاقاً من ذلك الركب والرفاق الذين كانوا معه.

نَعَمْ هَاجَتْ الْأَطْلَالُ شَوْقًا كَفَى بِهِ * مِنْ الشَّوْقِ إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ ظَاهِرٍ
فَمَا زِلْتُ أَطْوِي النَّفْسَ حَتَّى كَأَنَّهَا * بِذِي الرَّمْثِ لَمْ تَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ ذَاكِرٍ
حَيَاءً وَإِشْفَاقًا مِنَ الرِّكْبِ أَنْ يَرَوْا * دَلِيلًا عَلَى مُسْتَوْدَعَاتِ السَّرَائِرِ
وَقَالَ أَيْضًا:

وَقَفْنَا فَسَلَمْنَا فَكَادَتْ بِمَشْرِفٍ * لِعِرْفَانِ صَوْتِي دِمْنَةُ الدَّارِ تَنْطِقُ

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ١٣١.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٦٢.

(٣) ذو الرمة هو: غيلان بن عقبة بن يعيش، ويكنى أبا الحارث، وهو من بني صعيب بن ملكان بن عدي بن عبد مناة. الشعر والشعراء، ج ١، ص ٥٢٤.

(٤) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٦٢.

تجيشُ إليّ النفسُ في كلِّ منزلٍ * لمي ويرتاعُ الفؤادُ المشوّقُ
أراكِ إذا ما نمتُ يا مي زرتني * فيا عجباً لو أن رؤياكِ تصدّقُ^(١)

أما زهير فيصف قوام محبوبته ويرد على الواشين الذين عابوا طول قوامها فقال:

وهيفاء تحكي الرُمحَ لوناً وقامةً * لها مهجتي مبذولةً وقيادي
لقد عابها الواشي فقال طويلةً * مقالَ حُسودٍ مظهرٍ لعنادي
فقلتُ له بُشِّرْتَ بالخيرِ إنها * حياتي فإن طالتْ فذاك مُرادِي
وما عابها القُدُّ الطويلُ وإنه * لأولُ حُسنٍ للمليحةِ بادي
رأيتُ الحصونَ الشُمَّ تحفظُ أهلها * فأعددتُها حصناً لحفظِ ودادي^(٢)

يصف زهير في هذه الأبيات محبوبته الحسنة ويشكو شدة وجده وشوقه وتدفق دمه كلما هاجت أشجانه.

أخذتُ عليه في الصَّبابَةِ موثقاً * وما زلتُ دهري من تَجْنِيهِ مُشفِقا
ولي فيه قلبٌ بالغرامِ مقيّدٌ * له خبرٌ يرويه دَمْعِي مُطلقاً
كَلِفْتُ به أحوى الجُفُونِ مهفهفاً * من الظَّبْيِ أَصْلَى أو من الغُصْنِ أرشفا
ومن فرطِ وجدي في لَمَاهِ وثغره * أُعْلِلُ قلبي بالعُذِيبِ وبالنَّقَا
ولي حاجةٌ من وصلِّها غيرُ أنَّها * مُردِّدةٌ بين الصَّبابَةِ والتَّقَى
خليلي ماذا تعذلان عن امرئٍ * تذكرُ أياماً مضتْ فتشوقا
فلا تحسبا قلبي كما قلتما سَلاً * ولا تحسبا دَمْعِي كما قلتما رُقَى
فما زاد ذاك القلبُ إلا تمادياً * وما زاد ذاك الدمعُ إلا تدفُّقا^(٣)

لقد حانت ساعة الرحيل الذي طالما قد تخوف منه الشاعر فلم يكن أمامه سوى التزود باستراق النظر وفي تلك اللحظة تذكر ساعات اللقيا والتشفي يقول زهير:

أحبابنا ماذا الرحيلُ الذي دَنَا * لقد كنتُ منه دائماً أتخوفُ

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٦٣.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ١٣٣.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ١٣٥.

هبوا لي إن رحلتُم أطاعني * فإني بقلبي ذلك اليوم أعرفُ
 ويا ليتَ عيني تعرفَ النومَ بعدكم * عساها بطيفٍ منكم تتألفُ
 قفوا زودوني إن مننتم بنظرةٍ * تُعلُّ قلباً كادَ بالبينِ يتلفُ
 تعالوا بنا نسرقُ من العمرِ ساعةً * فنجني ثمارَ الوصلِ منها ونقطفُ
 وإن كنتم تَلْقَوْنَ في ذاك كلفةً * ذروني أمتٌ وجداً ولا تتكلفوا
 وكم ليلةً بتنا على غيرِ ريبةٍ * حبيبين ينهانا النهى والتعففُ
 ظفرنا بما نهوى من الإنسِ وحده * ولسنا إلى ما خلفه نتطرقُ^(١)

أما هذا الشاعر فهو أبداً ساهر فارق النوم جفنيه، وهو صابر متجلد
 ولكن باطنه خلاف الظاهر يقول شرف الدين بن أحمد بن الحلاوي^(٢):

حاشاك تُصبح بعد وَصْلِكَ هاجري * أفما لصدك والقلى من آخرِ
 يا غادراً فضحَ الهلالُ بوجهه * لما تبدى في ظلامِ غدائرِ
 وكَلَّتْ جفني بالسُّهادِ صبايةً * ورقدتَ عن ليلِ الكثيبِ الساهرِ
 لا نلتُ ما أرجوه منك من المُنَى * إن كان غيرُك خاطراً في خاطري
 أو كنتُ أستحلى القضيْبَ وإن بدا * من بعدِ قدك ناضراً في ناظري
 أنظنُّ أني رابحٌ وأنا الذي * أنسيتُ فيك حديثَ سلمِ الخاسرِ
 لا تعجبوا لتجلُّدي وتبسمي * في باطني بخلافِ ما في الظاهرِ
 كُفوا الملامَ فما فؤادي حاضرُ * من بعده بل غائبٌ في حاضرِ
 ولئن بقيتُ على هَواه فنادرُ * لا حكم في شرعِ الهوى للنادرِ
 ما قلتُ إلا ما وجدتُ حقيقةً * قولُ المتيمِّ غير قولِ الشاعرِ^(٣)

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ١٣٥.

(٢) هو أحمد بن محمد، ولد سنة ٦٠٣هـ وتوفي سنة ٦٥٦هـ. ذيل مرآة الزمان، ج ١، ص ٩-١٠٤،

فوات الوفيات، ج ١، ص ١٤٣، النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٧٤.

(٣) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٩٤.

يقول ذو الرمة:

أَلَمَّا بَمِي قَبْلَ أَنْ تَطْرَحَ النَّوَى * بَنَا مَطْرَحاً أَوْ قَبْلَ بَيْنِ يَزِيلُهَا
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا تَعْلُ سَاعَةٍ * قَلِيلُ فَإِنِّي نَافِعٌ لِي قَلِيلُهَا^(١)

أما صاحب ليلي الأخيلية فيقول إذا مت وسلّمت عليّ ليلي وأنا بين
أحضان القبر لسمعتها ورددت سلامها يقول توبة بن الحمير:

وَلَوْ أَنَّ لَيْلَى الْأَخِيلِيَّةَ سَلَّمَتْ * عَلَيَّ وَدُونِي جَنْدُلٌ وَصَفَائِحُ
سَلَّمْتُ تَسْلِيمَ الْبَشَاشَةِ أَوْزَقَا * إِلَيْهَا صَدَى مِنْ جَانِبِ الْقَبْرِ صَائِحُ
وَأَغْبَطُ مِنْ لَيْلَى بِمَا لَا أَتَأَلَّهُ * أَلَا كُلُّ مَا قَرَّتْ بِهِ الْعَيْنُ صَالِحُ^(٢)
المطلب الثالث: طول الليل:

تعارف شعراء الجاهلية على وصف الليل بالطول لهموم وأحزان ألّمت
بهم والنابعة استعار لليل صفة الطول فقال:

كَلَيْنِي لَهْمٌ يَا أُمَيْمَةُ نَاصِبُ * وَلَيْلٌ أَعَانِيهِ بَطِيءُ الْكَوَاكِبِ^(٣)
وللشعراء العباسيين في طول الليل معاني لطيفة ومقاصد شريفة
يعانون من طول الليل وانسداله في معرض الحديث عن حبههم وما يقاسونه
من السهر والأرق والحرمان كقول البحتري.

أَبَى اللَّيْلَ إِلَّا أَنْ يَعُودَ بِطَوْلِهِ * عَلَى عَاشِقٍ نَذَرَ الْمَنَامُ قَلِيلَهُ
لقد نسي العباس بن الأحنف^(٤) من شدة طول ليله النهار فقال:

أَيُّهَا الرَّاقِدُونَ حَوْلِي أَعِينُونِي * عَلَى اللَّيْلِ حَسْبَةً وَاتِّجَارًا
حَدَّثُونِي عَنِ النَّهَارِ حَدِيثًا * أَوْ صَفَوْهُ فَقَدْ نَسِيتُ النَّهَارَ^(٥)

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٦٤.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٦٥.

(٣) نفس المصدر السابق ص ١٣٩.

(٤) العباس بن الأحنف الأسود بن طلحة عاش في العصر العباسي الأول منشأه ومرباه في بغداد عاش
في نعمة وثراء وتترف قال عنه ابن المعتز (كان يتعاطى الفتوة على ستر وعفة وله مع ذلك كرم
ومحاسن أخلاق)، شعره لم يتجاوز الغزل، توفي سنة ١٩٢هـ - ٨٠٨م. معجم المؤلفين، ج ٢، ص ٣١.

(٥) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ١٣٩.

أما المتنبي^(١) فقد عانى من السهر والأرق فقال:

بَسَّ اللَّيَالِي سَهْرَتْ مِنْ طَرْبٍ * شَوْقًا إِلَى مَنْ يَبِيتُ يَرْقُدُهَا
أَحْيَيْتُهَا وَالدَّمُوعُ تَنْجِدُنِي * شَوْوْنَهَا وَالظَّلَامُ يَنْجِدُهَا^(٢)

يصف سيدوك الواسطي^(٣) ليله بعد غياب أحبته فيقول:

عَهْدِي بِنَا وَرَدَاءُ الْوَصْلِ يَجْمَعُنَا * وَاللَّيْلُ أَطْوَلُهُ كَالْمَحِ بِالْبَصْرِ
فَالآنَ لَيْلَى مَذْغَابُوا فَدَيْتَهُمْ * لَيْلِ الضَّرِيرِ فَصَبْحِي غَيْرُ مُنْتَظَرٍ^(٤)

هذه الليلة لا تغيب نجومها أبدًا. أما أفلاكها فهي واقفة امتنعت عن الدوران. الشريف البياضي^(٥).

الليلُ مِنْ سَهْرِي عَلَى نَهَارٍ * يَزْدَادُ طَوْلًا وَالْجَفُونُ قِصَارُ
أَرعى نَجُومًا لَا تَغِيبُ كَأَنَّمَا * أَفْلَاكُهَا وَقَفَتْ فَلَيْسَ تَدَارُ^(٦)

أما ابن الرومي فشبه لنا نجوم تلك الليلة بالشيب لا ينقص أبدًا بل دائماً في تزايد:

رَبِّ لَيْلٍ كَأَنَّهُ الدَّهْرُ طَوْلًا * قَدْ تَنَاهَى فَلَيْسَ فِيهِ مَزِيدُ
ذِي نَجُومٍ كَأَنَّهُنَّ نَجُومُ الشَّيْبِ * لَيْسَتْ تَزُولُ لَكِنْ تَزِيدُ^(٧)

والشاعر أبو هلال العسكري لا يدري هل الذي يعانيه مسٌّ من الجن أم شدة الوجد فيقول:

غَابُوا فَلَمْ أَدْرِ مَا أَلَاقِي * مَسٌّ مِنَ الْوَجْدِ أَوْ جَنُونُ
لَيْلَى لَا يَبْتَغَى بِرَاحًا * كَأَنَّهُ أَدْهَمُ حَارُونَ

(١) المتنبي: أبو الطيب أحمد بن الحسين الكندي الكوفي الشاعر المشهور من أهل الكوفة، اشتغل بفنون الأدب ومهر فيها. وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٢٠.

(٢) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ١٣٩.

(٣) سيدوك الواسطي هو أبو طاهر عبد العزيز بن حامد من أهل واسط توفي سنة ٣٦٣هـ. يتيمة الدهر، ج ٢، ص ٣٧٢، فوات الوفيات، ج ٢، ص ٣٣١.

(٤) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ١٣٩.

(٥) الشريف البياضي هو مسعود بن عبد العزيز من أهل بغداد توفي سنة ٤٦٨هـ. وفيات الأعيان، ج ٥، ص ١٩٧.

(٦) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ١٤٠.

(٧) نفس المصدر السابق، ص ١٤٠.

أَجِيلٌ فِي صَفْحَتَيْهِ عَيْنًا * مَا تَتَلَقَّى لَهَا جَفُونَ^(١)
أما ابن طباطبا فيرى أن نظام الكون قد تغير فقد سارت النجوم نهارةً
أما في الليل فقد توقفت لتستريح كناية عن شدة سهرية وأرقه فقال^(٢):
كَأَنَّ نَجُومَ اللَّيْلِ سَارَتْ نَهَارَهَا * وَوَأَفَتْ عِشَاءً وَهِيَ أَنْضَاءُ أَسْفَارِ
فَخِيَمَنَ حَتَّى تَسْتَرِيحَ رِكَابُهَا * وَلَا فُلُكُ جَارٍ وَلَا كَوْكَبُ سَارِ^(٣)
أما هذا الشاعر فقال ليله كأنه حولاً بأكمله فقال:
يَا لَيْلَةً طَالَتْ عَلَى عَاشِقٍ * مُنْتَظِرٍ لِلصَّبْحِ مِيعَادًا
كَادَتْ تَكُونُ الْحَوْلَ فِي طَوْلِهَا * إِذَا مَضَى أَوَّلُهَا عَادًا^(٤)
لقد اكتوى الإربلي بنار هجران الحبيب وجفاه وتجاهله، ومع ذلك هو
مستمسك به ويقول لولا أن حكم الهوى قاهر لما لعب الوجد بالرجل الحكيم
فقال:

أَرْقَنِي هَجْرُ غَزَالِ الصَّرِيمِ * فَبِتُّ إِذْ بَتُّ بَلِيلِ السَّلِيمِ
وَكَيْفَ لَا يَجْفُو الْكَرَى عَاشِقٌ * تَيَّمَهُ ذَاكَ الْقَوَامُ الْقَوِيمِ
وَلِي غَرِيمٌ هُوَ مَعَ هَجْرِهِ * وَمَا أُعَانِي مِنْهُ نِعَمَ الْغَرِيمِ
يَمِيلُ عَنِ وَصْلِي وَيُبْذِي الْجَفَا * وَمَذْهَبِي فِي حَبِّهِ مُسْتَقِيمٌ
فَعُدُّ عَنْ عَذْلِي فَمَا جَاهِلٌ * بِالْحَالِ يَا عَاذِلُ مِثْلَ الْعَلِيمِ
لَوْ لَمْ يَكُنْ حَكْمُ الْهَوَى قَاهِرًا * مَا لَعَبَ الْوَجْدُ بِرَأْيِ الْحَكِيمِ^(٥)
وهذا الشاعر يضرب على الرمل، والضرب على الرمل مثل التتجيم
ليرى حظه هل تعود له محبوبته وتصله بعد الهجر لقد أصبح مثل مجنون
ليلي يخط على الرمل. فقال ابن مطروح:
تَعَلَّمْتُ ضَرْبَ الرَّمْلِ لَمَّا هَجَرْتُمْ * لَعَلِّي أَرَى فِيهِ دَلِيلًا عَلَى الْوَصْلِ

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ١٤٠.

(٢) أبو القاسم أحمد بن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم طباطبا كان نقيب الطالبين بمصر، له شعر مليح
في الزهد والغزل وغير ذلك توفي سنة خمس وأربعين وثلثمائة وعمره أربع وستون سنة.

(٣) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ١٤٠.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ١٤١.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٤٧.

ورغبني فيه بياضٌ وحمرةٌ * رأيتُهما في وجنةٍ سَلَبْتُ عَقْلِي
 وقالوا ظريفٌ قَلْتُ يا ربَّ للرَّضَى * وقالوا اجتماعٌ قَلْتُ يا ربَّ للشَّمْلِ
 وقد صرتُ فيكم مثلَ مجنونٍ عامرٍ * فلا تنكروا إني أخطُ على الرَّمْلِ^(١)
 يطلب عز الدين أبو علي من الركب أن يقف بنجد ليبلغوا تحاياهم لذلك

المحب الذي شبه تنثيه بالغصن ووجهه بالبدر فقال:

قَفْ بنجدٍ وحيٍّ إن جئتَ نجدًا * معهداً لم أضعُ لمن فيه عهدًا
 وتحمل تحيةً من مُحَبٍّ * وجد الغي في الصُّبابةِ رُشدًا
 وبروحي أفدى بديعِ جمالٍ * يتثنى فيخجلُ الغصنُ قَدًا
 يفيضُ البدر والأراكة والورد * محياً ولين عطفٍ وخَدًا
 ليس لي عن هواه ثانٍ وقد * أصبحَ في الحسنِ والملاحَةِ فردًا
 في الثنايا العذابِ منه رضابٌ * حَصَرَ يُكسب الجوانحَ وَقَدًا^(٢)

صاحب ولادة بنت الخليفة المستكفي بن زيدون^(٣) يصف الزمان بالغدر والخيانة. ولكن على الرغم من البعد والفراق فسوف يظل يتمسك بها وفيها لها، لم يغيره البعد الذي طالما غير بعض المحبين فقال:

بِنتُم وبنًا فما ابتلتُ جوانحُنَا * شوقاً إليكم ولا جفتُ مآقِينَا
 تكادُ حين تناجيكم ضمائرُنَا * يَقْضِي علينا الأسي لولا تأسِّينَا
 إنَّ الزمانَ الذي ما زال يُضحكنا * أنساً بقربكم قد عادَ يُبْكِينَا
 لا تحسَبُوا نأيكم عنا يُغيرُنَا * إذ طالما غيَّرَ النأيُ المحبينَا
 والله ما طلبتُ أرواحُنَا بدلاً * منكم ولا انصرفتُ عنكم أمانينَا^(٤)

الصاحب بهاء الدين الإريلي^(٥) يقول: نظمت القصائد وكتبت المقالات أما فنون المعاني فهي من عبيدي وجندي لشدة معرفتي بها ولكن بالرغم من

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشي، ص ١٤٧.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ١٤٨.

(٣) ابن زيدون: أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي الأندلسي

المشهور، كان أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة. فوات الوفيات، ج ١، ص ١٥٢.

(٤) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشي، ص ٧٣.

(٥) بهاء الدين الإريلي، سبق ترجمته.

هذه المعارف والإلمام بفنونها إذا حاولت أن أصف وجدي وصبابتي وأساليا
لفراقكم وبعدكم لم أستطع أن أعبر وأصف الذي بداخلي فيقول:

- أمولاي لو بالغتُ في وصف لوعتي * وشوقي وما أخفيه من صادق الودِّ
وأعطيتُ إرسالَ المقالِ وأصبحتُ * فنونُ المعاني من عبيدي ومن جُندي
وطاوعني نظمُ القريضِ وحوكُهُ * فجئتُ به أزهى وأسنى من العقدِ
ورمتُ به وصفَ الصبابةِ والأسى * لبعدكم لم أبدِ بعضَ الذي عني
وأنشدني المولى قريضاً محبّراً * أسألُ به سلكَ الدموعِ على خدي
سمعتُ بوصفِ الناسِ هنداً فلم أزلُ * أبا صبوةً حتى نظرتُ إلى هندِ
فلما أراني اللهَ هنداً تضاعفَ اشتياقي * واستسلفتُ جداً على وجدِ
وهذا الذي ألقاه والشملُ جامعُ * فوا أسفي مما ألاقيه في البعدِ^(١)

نصب أبو تمام^(٢) أشراكه آخر الليل فاستطاع أن يقتنص تلك الظبية

وقال في أخرى:

- زارَ الخيالُ له بل أزاركه * ففكرُ إذا نام ففكرُ الخلقِ لم ينمِ
ظبي تقتصته لما نصبتُ له * في آخر الليل أشراكاً من الحلمِ

وقال:

- عاد الزورُ ليلة الرمل من * رملة بين الحمى وبين المطالِ
نمَ فما زارك الخيالُ ولكنك * بالفكرِ زُرت طيف الخيالِ

المطلب الرابع: طيب الثغر:

أما عن ريق المحبوبة وطيب الثغر فقد أبدع فيه الشعراء وتفننوا.

ها هو امرؤ القيس يصفها بطيب الريق طعماً ورائحة عندما يغرد

الطائر في السحر وذلك وقت تغير الأفواه.

- كَأَنَّ الْمُدَامَ وَصَوْبَ الْغَمَامِ * وَرِيحُ الْخَزَامِي وَنَشْرُ الْقَطْرِ

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٨٠.

(٢) أبو تمام: (٨٠٤ - ٨٤٦) حبيب بن أوس بن الحارث الطائي، شاعر وأديب، ولد في جاسم من قرى

حوران بسوريا، عاصر المعتصم في العراق، كان كثير الحفظ وله تصانيف كثيرة منها: فحول

الشعراء، ديوان الحماسة، ومن ما كُتب في سيرته أخبار أبي تمام وأبو تمام الطائي حياته وشعره،

لمحمد البهيتي المصري، وأخبار أبو تمام للمرزباني. الأعلام، ج ٢، ص ١٦٥.

يَعْلُ بِهِ بَرْدُ أَنْيَابِهَا * إِذَا غَرَدَ الطَّائِرُ الْمُسْتَحَرُّ^(١)

يصف ابن الرومي^(٢) محبوبته بأنها لا تنام مثل سائر البشر ولكنها تتخير فيطيب أنفاسها مثل الروضة المطيرة عندما يهب عليها الرياح وقت السحر فإن أنفاسها بأطيب ما يكون فيقول:

وَمَا تَعْتَرِيهَا آفَةٌ بَشْرِيَّةٌ * مِنَ النَّوْمِ إِلَّا أَنَهَا تَتَخَيَّرُ

وغير عجب طيب أنفاس روضة * منورة باتت تراح وتمطر

كذلك أنفاس الرياح بسحرة * تطيب وأنفاس الأنعام تغيّر^(٣)

أما التهامي فيقول في ذات المعنى:

يحكى جنى الأقحوان الغض مبسمها * في اللون والريح والتفليج والأشر

لو لم يكن أقحواناً ثغر مبسمها * ما كان يزداد طيباً ساعة السحر^(٤)

الفلج في الأسنان تباعد بين الثنايا والرباعيات، ورجل مفلج الثنايا:

متفرقها وتأشير الأسنان: تحزيرها وتحديد أطرافها.

اهتزّ عند تمنّي وصلها طرباً * وربّ أمنية أخلّى من الظفر

تجنّى عليّ وأجنّى من مرآشفها * ففي الجنى والجنات انقضى عمري

أهدى لنا طيفها نجداً وساكنه * حتى اقتنصنا ظباء البدو في الحضر

بيضاء تسحب ليلاً حسنة أبداً * في الطول منه وحسن الليل في القصر^(٥)

شاعر الحماسة لم يتذوق ريقها ولكن تعرف عليه بفراسته.

ما نطفة من ماء مزن تقاذفت * به جنبتا الجودي والليل دامس

فلما أقرته اللصاب تنفست * شمأل بأعلى متنه فهو قارس

بأطيب من فيها وما ذقت طعمه * ولكنني فيما ترى العين فارس^(٦)

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٥٧.

(٢) ابن الرومي: أبو الحسن علي بن العباس بن صريم الشاعر المعروف من طبقة بشار والمتنبي، ولد ونشأ ببغداد. الأعلام، ج ٤، ص ٢٩٧.

(٣) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٥٧.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٥٧.

(٥) المصدر نفسه، ص ٥٨.

(٦) المصدر نفسه، ص ٥٨.

ومثله:

كَأَنَّ عَلَى أَنْيَابِهَا الْحَمْرَ شَجَةً * بِمَاءِ النَّدى مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ غَابِقُ
وَمَا ذُقْتُهُ إِلَّا بَعَيْنِي تَفْرَساً * كَمَا شِيمَ مِنْ أَعْلَى السَّحَابَةِ بَارِقُ^(١)

ومثله:

جَنَى النَّحْلُ مِنْ فِيهِ وَمَا ذُقْتُ طَعْمَهُ * وَلَكِنَّمَا قَدْ دَبَّ مِنْ تَحْتِهِ النَّمْلُ^(٢)
أَمَّا هَؤُلَاءِ فَقَدْ تَعَرَّفُوا عَلَى طَيْبِ رِيْقِ الْمَحْبُوبَةِ عَنْ طَرِيقِ الْمِسْوَاكِ.
يَا أَطِيبَ النَّاسِ رِيْقاً غَيْرَ مُخْتَبَرٍ * إِلَّا شَهَادَةُ أَطْرَافِ الْمَسَاوِيكِ^(٣)
وَقَدْ شَهِدَ الْمِسْوَاكُ عِنْدِي بِطَيْبِهِ * وَلَمْ أَرَ عَدَلاً وَهُوَ سَكْرَانٌ يَطْفَحُ^(٤)
يُرَوِّى لَنَا الْمِسْوَاكُ طَيْبَ حَدِيثِهِ * بِأَطْيَبَ مَا نَقَلَ الْأَرَاكُ وَمَا رَوَى^(٥)

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٥٨ - ٥٩.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٥٩.

(٣) نفس المصدر، ص ٥٩.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٥٩.

(٥) نفس المصدر السابق، ص ٥٩.

المبحث الثاني

وصف في الشباب والمشيب والخضاب والغناء

المطلب الأول: وصف في الشباب والمشيب:

لقد أكثر الشعراء من ذكر زمن الشباب، حيث العاطفة والقوة والملذات، وهي فترة الخيال والأحلام، والاستقاء من مناهل الوجد والهيّام. ولكن عندما ولّى هذا العصر بكى عليه الشعراء بكاءً حاراً، قد ولّى زمن العاطفة وجاء زمن الاحتكام إلى العقل وفرد الصباح رداءه وولّى المساء، وبدأت المعاناة والتظلم من الشيب.

صاحب التذكرة الفخرية بهاء الدين الإريلي بدأ أول فصل في كتابه بوصف الشباب لأهميته في حياة الإنسان وجمع لنا أجمل ما قيل في الشباب. ها هو أبو حية النمري يبكي زمن الشباب وكيف أن الدهر غير حاله وكأن الشباب كان ثوباً مستعاراً فقال:

زمان الصبا ليت أيا منّا *	رجعن لنا الصالحات القصّاراً
زمان عليّ غراب غداف *	فطيره الدهر عني فطاراً
فلا يبعد الله ذاك الغراب *	وإن هو لم يبق إلا ادّكاراً
كأن الشباب ولذاته *	وريق الصبا كان ثوباً معاراً ^(١)
وهزئته إذ رأت لمتى *	تلفع شيب به فاستداراً
وقلّدي منه بعد الخطام *	عذاراً فما أستطيع عنه اعتذاراً
أجارتنا إن ريب الزمان *	قبلي غال الرجال الخياراً
فأما ترى لمتى هكذا *	فأسرعت منها لشيب النفاراً
فقد ارتدى طلة وحفه *	وقد أبرز الفتيات الخفّاراً ^(٢)

(١) ريق السبا: أوله

(٢) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٤٤ - ٤٥. الطلة: اللذبة. شعر وصف: أي كثير

أسود. الخفر: شدة الحياء

أما الإمام الشافعي شبه بياض الشعر بالبومة، متى ما حلت فذاك نذير
شؤم فقال:

أيا بومة قد عشعت فوق هامتي * على الرغم مني حين طار غرابها
علمت خراب العمر مني فزرتني * ومأواك من كل الديار خرابها^(١)
يتحسر أبو حية النميري لفراق الشباب:

لعمر أبى الشباب لقد تولى * حميداً لا يُراد به بديل
إذ الأيام مقبلة علينا * وظل أراكه الدنيا خليل
فرحل بالشباب الشيب عنا * فليت الشيب كان به الرحيل
وقد كان الشباب لنا خليلاً * فقد قضى مأربه الخليل^(٢)

أما أبو نواس فتحسر هو أيضاً لفراق الشباب وزمن اللهو:

كان الشباب مطية الجهل * ومحسن الضحكات والهزل
كان الشفيق إلى مأربه * عند الفتاة ومدرك التبل^(٣)
كان الجميل إذا ارتدبت به * ومشيت أخطر صيت النعل
والباعثي والناس قد رقدوا * حتى أكون خليفة البغل
والآمري حتى إذا عزمت * نفسي أعان يدي بالفعل^(٤)

يقول البحتري واصفاً أيام الشباب واللهو بأنها قليلة:

فاضلت حلمي والتفت إلى الصبا * سفاها وقد جزت الشباب مراحلاً
فله أيام الشباب وحسن ما * فعلن بنا لو لم يكن قلائلاً^(٥)

وها هو ابن نباته السعدي يقول بأن الشاب قد يغفر ذنبه أما ذو الشيب
فليس لذنبه غافر لذا يتمنى بقاء الشباب وعدم زواله.

لا يبعدن زمن البطالة والصبا * والعيش في ظل الزمان الناصر

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٤٥.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٤٥ - ٤٦.

(٣) التبل: العشق.

(٤) نفس المصدر السابق، ص - ٤٦.

(٥) نفس المصدر السابق، ص ٤٦.

أيام تغفر للشباب ذنوبه * والشيب ليس لذنبيه من غافر^(١)
ومثل هذا بشار بن برد^(٢):

ولقد جريت مع الصبا طلق الصبا * وركضت حتى لم أجد لي مَرَضًا
وعلمت ما علم امرؤ من دهره * فأطعت عاذلتي وأعطيت الرضا^(٣)

أما أبو نواس فقضى شبابه في اللهو والمجون وتنبه بأن خلاصة ذاك
كله ذنوب وآثام:

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم * وأسمت سرح اللهو حيث أساموا
وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه * فإذا عصاره كل ذاك آثام^(٤)

أما بهاء الدين الإربلي فيقول لقد لهوت ما شاء أن ألهو في زمن الصبا
ولكن صحت عندما لاح المشيب برأسي.

ولقد سكرت غداة خمّاري الصبا * وصحوت إذ لاح المشيب بمفرقي
ونزعت من عيني وقلت للآثمي * ها قد أطعتك في مرادك فارق^(٥)

كل شيء قد يكون له ما يشابهه أو ما يعوض عنه إلا عصر الصبا إذا
مضى فلا شيء يعوضه كما قال أبو العلاء المعري^(٦).

إذا الفتى ذمّ عيشاً في شببيته * فما يقول إذا عصر الشباب مَضَى
وقد تعوضت عن كل بمشبهه * فما وجدت لأيام الصبا عوضاً^(٧)

(١) كتاب التذكرة الفخرية، بهاء الدين المنشيء، ص ٤٦.

(٢) بشار بن برد: العقلي بالولاء الضرير أبو معاذ، شاعر مشهور غزير الشعر سمح القريحة، خطيباً شجاعاً، اتهمه المهدي بالزندقة فقتل عليها في بغداد، معجم المؤلفين، تراجم مصنف الكتب العربية، تأليف عمر رضا كحالة، الناشر مؤسسة الرسالة، ج ٣، ص ٤٢٦.

(٣) كتاب التذكرة الفخرية، بهاء الدين المنشيء، ص ٤٦.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٤٦.

(٥) نفس المصدر السابق، ص ٤٦.

(٦) أبو العلاء المعري: أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد المعري اللغوي مطلع في فنون الأدب، قرأ النحو واللغة على أبيه وله تصانيف كثيرة منها: لزوم ما لا يلزم. سقط الزند، له ديوان شعر. وفيات الأعيان، ج ١، ص ١١٣-١١٤.

(٧) نفس المصدر السابق، ص ٤٦.

أما ابن طباطبا فيقول الشباب جنة الدنيا مهما طال فلا أحد يمل منه فقال:

كان عصر الشباب ظلاً ظليلاً * تتفياً بعقوته الظباء^(١)
كان عصر الشباب جنةً دنياً * أجتى من ثماره ما أشاء
لو ثوى نازلاً لما قلت فيه * (ربّ ثاوٍ يملُّ منه الثواء)^(٢)

وهذا الشاعر لا يرى شيء أمر من ذهاب أول الشباب وفرقة الأحباب:
شيان لو بكت الدماء عليهما * عيناى حتى يأذنا بذهاب
لم يبلغا المعشار من حقيهما * شرخ الشباب وفرقة الأحباب^(٣)
أما صاحب الإربلي فيتسائل هل يعود ذلك العصر الذي ولى كأنه
خيال زائر:

هل مُعيد عصر الشباب وعيشاً * خلّت أوقاته خيالاً زاراً
إذ مغاني الحمى أواهل تجلو * للعيون الشמוש والأقمار^(٤)
لقد بكى الإربلي زمن الشباب والصبا بكاءً حاراً ودعا لها بالسقيا
الدائم.

زمنُ الهوى والبطالة جادتكَ * دموعي فصوبهن مُطيرُ
وسقى عهدنا بمخدعها درُ * شؤبوبها ملث غزيرُ^(٥)
دارُ لهوٍ قضيتُ فيها شبابي * وخلعتُ العذار وهوَ طريرُ
وإذا ما الشبابُ ولى فما * أنتَ على فعل أهله معذورُ
فاتباعُ الهوى وقد وخطَ الشيبُ * وأودى غصنُ التصابي غرورُ^(٦)

(١) العقوة: الساحة وما حول الدار.

(٢) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٤٧.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٤٨. شرخ الشباب: أوله.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٤٨.

(٥) الشؤبوب: الدفعة من الغيث، والجمع الشأبيب. الملت: الدائم.

(٦) نفس المصدر السابق، ص ٤٨.

والشاعر أبو اليمن^(١) يسأل الله العفو عما كان من لهو الشباب. ويقول
لا أحد يشتهي الشيب لأنه مدعاة للأرق والأحزان:

عفا الله عما جرّه اللهُوُ والصِّبا * وما مرّ من قال الشباب وقيله
زمانُ صحبناه بأرغد عيشة * إلى أن مضى مستكرهاً لسبيله
وأعقبنا من بعده غير مُشتهى * مشيبُ نفى عنا الكرى بحلوله
لئن عَظُمَت أحزاننا بنزوله * لأعظم منها خوفاً من رحيله^(٢)

أفنى الإربلي دموعه بالبكاء على الرسوم والأطلال ويتذكر تلك الأيام
السالفات حيث اللقيا بالأحبة ويتمنى رجوع أيام الصبا، ثم يدرك بأن رجوع
عصر الصبا محال بل هو عين الضلال فيقول:

لا تَسْمُنِي صبراً فقد حَرَمَ الـ * صبر عيونُ ترمى بسحرٍ حلالٍ
واستعزّ لي دمعَ السحابِ فقد * أفنيتُ دمعِي على الرسوم الخوالي
وأعدّ لي ذكراً العقيق وأيامٍ * تقضتُ لنا به وليالي
فطلابي رجوعُ ما فات من عصرٍ * الصِّبا والشباب عينُ الضلالِ
وسؤالي رسماً محيلاً ونوياً * عاطلاً من تعلّلات المحالِ
فأله عني يا عاذلي فغرامي * حاكمُ باستهانة العُذالِ^(٣)

يرى بهاء الدين الإربلي أن زمن الصبا وقت الراحة فيدعو لها بالسقيا.
أما الشيب فيرى فيه الأدب والوقار فرحب به فقال:

وكان الشبابُ الغُضُّ لي فيه راحةٌ * فوقّرني فيه المشيبُ وأدبا
فسقياً ورعياً للشباب الذي مضى * وأهلاً وسهلاً بالمشيب ومرحباً^(٤)

لا يصبر محمد بن حازم على فراق زمن الصبا فيرسل دموعه منهمة
لأنه فارق ذلك العهد الذي تشفع فيه ذنوبه فيقول:

(١) أبو اليمن من أهل بغداد وهو عالم وشاعر، توفي سنة ٦١٣هـ. (فريدة القصر) القسم العراقي

٢١٩/١/٣ / معجم الأدباء، ج ١١، ص ١٧.

(٢) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٤٨ - ٤٩.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٥٢ - ٥٣.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٥٣.

لا حين صبرٍ فخلَّ الدمعَ ينهملُ * فقدُ الشبابَ بيومِ المرءِ متصلُ
لا تكذبِ فما الدنيا بأجمعِها * من الشبابِ بيومٍ واحدٍ بدلُ
كفاك بالشيبِ ذنباً عند غانيةٍ * وبالشبابِ شفيعاً أيُّها الرجلُ^(١)

فارق بهاء الدين الإربلي الشباب دون أن يودعه استجابة للشيب
وطاعة له فقال:

والآنَ فارقتُ الشبابَ وقلتُ * للعيش الذي فارقتُ غير مودّع
ودعا المشيبُ إلى النهى فأجبتُه * بضمير مختار وقلب طيّع
ورمى العذار بنا فذم من أسهمُ * للصبح في ليل الشببية تدعى^(٢)

أما ابن الرومي فيقول: أننا لا نرى الشباب حق رؤيته إلا عندما يحل
بنا الشيب والهرم كالشمس لا تبدو فضيلتها وأهميتها إلا إذا حل الظلام.

لا تلح من يبكي شبيبته * إلا إذا لم تبكها بدم
لسنا نراها حق رؤيتها * إلا زمان الشيب والهرم
كالشمس لا تبدو فضيلتها * حتى تغشى الأرض بالظلم
ولرب أمر لا يبينه * وجدائنه إلا مع العدم^(٣)

المطلب الثاني: ما قيل في ذم الشباب والخضاب:

من الشعراء من ذم الشباب واصفاً إياه بالجري وراء الملذات وشهوات
النفس دون أن يكون للعقل فيه مكان، بل وصفه البعض بأنه زائر أقام قليلاً
سود الصحف بالذنوب ثم ولى. فقال: ابن التعاويذي البغدادي:

لم أقل للشباب في دعة الله * ولا حفظه غداة استقلا
زائر زارنا أقام قليلاً * سود الصحف بالذنوب وولى^(٤)

وقال ابن الفقيه المحولي:

يا هاجياً عصر المشيب * ومادحاً عصر التصابي

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٥٣.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٥٢.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٥٠.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٥٠.

لو جزت يوماً بالموح * ول ما ذممت سوى الشباب^(١)

يقول هذا الشاعر أن الالتحاء بداية المشيب ثم يأتي من بعده البياض

فيرحل السواد:

قبل الشباب شبيبة محمود * والالتحاء هو المشيب الأول

يأتي السواد على البياض وبعده * يأتي البياض على السواد فيرحل^(٢)

أما منصور النمري فلا يتحسر ولا يجزع لشباب لا يمكن رجوعه

فيقول:

لا حسرة تنقضي مني ولا جزع * إذا ذكرت شباب ليس يرتجع

ما كنت أوفى شبابي كنه غرته * حتى انقضى فإذا الدنيا له تبع^(٣)

لا يرى ابن الرومي فائدة ولا جدوى من الخضاب، بحجة أن خضاب

الأصل لم يبق لونه فكيف لخضاب مستعار أن يدوم:

وقالوا اختضب قبل المشيب فقد بدت * لأسهمه في عارضيك نصول

فقلت خضاب الأصل لم يبق لونه * فكيف خضاب يعتريه نصول^(٤)

وقال أيضاً الخضاب ما هو إلا حداد على مفارقة الشباب ولكن هل

يجدي؟:

إذا خضب الشيخ المشيب فإنه * حداداً على شرخ الشبيبة يلبس

وإلا فما يبغى امروء بخضابه * أيطمع أن يخفى شباب مدلس

وكيف بأن يخفى المشيب بخاضب * وكل ثلاث صبحه يتنفس

وهبه يوارى شيبه أين ماؤه * وأين أديم للشبيبة أملس^(٥)

(١) كتاب التذكرة، الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٥٠.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٥٠.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٥٣.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٥٤.

(٥) نفس المصدر السابق، ص ٥٤ - ٥٥.

ويرحب ابن الرومي بالمشيب قائلاً:

إذا شئتُ عينُ امرئٍ شيبَ نفسه * فعينُ سواه بالشناءة أجدرُ
أيهذا الشيبُ سمعاً وطاعةً * فأنتَ لعمري ما حييتَ المظفرُ
إذا كنتَ تمحو صِبْغةَ اللهِ قادراً * فأنتَ على ما يصنعُ الناسَ أقدرُ^(١)
حكى أن بعض ملوك حمير خرج متصيداً فرأى شيخاً منفرداً فوقف
عليه وإذا به يخضب فقال: يا شيخ هبك تخضب البياض فكيف تخضب الكبر
وأنشده:

إذا دامَ للمرءِ السوادَ وأخلقت * محاسنه ظنَّ السوادَ خضاباً
فكيف يظنُّ الشيخُ أن خضابه * يُظنُّ سواداً أو يُحال شَبَاباً^(٢)
يقول الإربلي: لو أعطى الشيخ نصيباً من البياض وكانت له قريحة في
هذا الشأن لأمكنه أن يجيب الملك مناقضاً وينشده معارضاً:
وحقك لم أخضب رجاءً شيبيةً * تُعاد ولا وصل أفاق ذهابه
ولكن بدا شيبى ذميماً ورائداً * لموتي فصيرت الخضاب عقابه^(٣)
أما كمال الدين بن محمد فيرى أن الشيب موت قادم فجعل الخضاب
حائلاً وحجاباً فقال:

لما رأيتُ الشيبَ نازلَ لمتى * أعددتُ عندي للقاء خضاباً
وعلمتُ أن الشيبَ موتٌ لقادم * فجعلته دونَ المشيبِ حِجاباً^(٤)
أما عن الخضاب فقال الشعراء فيه بأنه شباب مستعار ومنهم من
يتحايل ويأتي بالعلل التي دعت به بأن يخضب شعره فهذا هو أبو علي الحسن
يقول بأنه اختضب حين بدا المشيب ذميماً فأراد أن يعاقبه بالخضاب فقال:
خضبتُ الشيبَ لما كان عيباً * وخضبُ الشيبِ أولى أن يُعاباً
ولم أخضبُ مخافةً هجرٍ خلٍّ * ولا عنتاً خشيتُ ولا عتاباً

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٥٥.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٥٥.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٥٥.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٥٦.

ولكن المشيبَ بدا ذميماً * فصيرتُ الخضابَ له عقاباً^(١)

وهذا الشاعر انهمرت عيناه بالدموع عندما سمع عتابها له:

وهي التي قالت لجارة بيتها * قولاً دموعي كنّ رجّع جوابه

ما كان ينفعه لدى شبابه * فعلامٌ يُتعب نفسه بخضابه^(٢)

أما هذا الشاعر فلم يخضب لكي يدوم له الشباب، ولكن خضب رأسه مخافة أن يطلب منه أمر من الأمور التي تطلب من ذوي العقول وكبار السن، فلا يستطيع، وهذه حيلة ما فوقها حيلة:

وحقّك ما خضبتُ مشيبَ رأسي * رجاءً أن يدومَ لي الشبابُ

ولكنني خشيتُ يُراد مني * عقولُ ذوي المشيبِ فلا يُصابُ^(٣)

أما هذا فيرى الخضاب حيلة لاصطياد الكعاب:

إن الخضابَ لحيلةٌ * في ردّ أيامِ الشَّبابِ

ويغض من طرفِ العدو * ويستبى قلبَ الكعابِ^(٤)

أما هذا الشاعر فقد عاتبته محبوبته حين خضب رأسه ولكنه أجاب بأن هذا الخضاب بمثابة ثياب حزن لفقد الشباب:

وقاتلةٌ لما رأت شيبَ لمّتي * أستره عن وجهها بخضابِ

أستُرّ عني وجهَ حقٍ بباطلٍ * وتوهمني ماء بلّمعٍ سرابِ

فقلتُ لها كُفّي ملامك إنها * ملابسُ أحزاني لفقدِ شبابي^(٥)

أما علي بن هلال الصابي فيقول بأن الخضاب يضيع هيبة المشيب:

خضّبِ الشيبَ إذ بدا أترابي * وتوخوا فيه خلافَ الصوابِ

ولو أني خضبتُ ضاعتُ بقايا * من شبابي صحيحةً في خضابي

ومضتُ هيبَةُ المشيبِ ولم ير * جعُ إلى الوجنتين ماءُ الشبابِ

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٥٤.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٥٤.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٥٤.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٥٤.

(٥) نفس المصدر السابق، ص ٥٤.

فيضيعُ الشبابُ مني والشيبُ * جميعاً إذا حسبت حسابي^(١)
المطلب الثالث: وصف في الغناء وما يتعلق به:

لا يحلو الخمر إلا بمجالسة الندمان والاستماع إلى المغنين والمغنيات خاصة في العصر العباسي، ومرد ذلك النعيم الدفاق الذي صاحب ذلك العصر. ومجالس الخمريين مجالس طرب وهو حيث الغناء الهادي والصاحب، أما سقاة الخمر فهم غلمان في ملابس زاهية وأنيقة، أو ساقيات مائسات يتحايلن مع الأنعام في غنج. وسط هذه الأجواء اللاهية جادت قريحة الشعراء بأشعار كالدرر المنظومة.

لا يتذوق أبو نواس الكأس ولا يتلذذ بها إلا إذا نطق العود:
لا أرحل الكأس إلا أن يكون لها * حادٍ بمنتحل الألحان غريدُ
فاستنطق العودَ قد طال السكوتُ به * لا ينطق اللهو حتى ينطق العودُ^(٢)
تتغنى الورق على العود أي الغصن عندما يكون مخضراً ناضراً، أما الغانيات الحسان قد يتغنين على العود وهو يابس وذلك بمداعبة أناملهن لأوتاره.
وعودُ لهو فيه أثمارُ المنى * قد طاب جانيه وطاب الغارسُ
غنت عليه الورقُ وهو ناضرُ * والغانياتُ الغيدُ وهو يابسُ^(٣)
أما كشاجم^(٤) يصف لنا أثر تلك الأنعام عليه، حيث حرك بداخله الشوق والحنين صباحاً.

ولمَّا عبثن بعيدهن * قبيلَ التبليج أيقظنني^(٥)
أردنَ بذاك إصلاحنهن * فأصلحنهن وأفسدنني^(٦)

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٥٦.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٢٢٧.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٢٢٧.

(٤) كشاجم: أبو الفتح محمود بن محمد بن الحسين، شاعر مشهور نشأ بالرملة في فلسطين، كاتب له العديد من المصنفات. الفهرست، ص ١٣٩.

(٥) التبليج: طلوع الفجر.

(٦) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٢٧.

وازن ابن خباز النحوي بين أنغام الطنبور وتغريد العندليب:

وطنبور رشيق القَدْ يحكي * بنغمته الفصيحة عَنديا
حكى لما انتهى نغماً فصيحاً * رواها عن عنادله قَضيبا
كذا من جالس العلماء طفلاً * يكون إذا انتهى شيخاً أديباً^(١)

بعض المحدثين يصف لنا صوت ذاك المغني العذب الذي يطرب الصم
بنبرات صوته، أما الوحوش النافرة لو استمعت إليه لصارت أليفة وانقادت
إليه.

أخ ما يزال الدهر يكسوك حُلَّةً * من البرِّ لا تبلى على الطي والنشرِ
يشوقك أحياناً غناءً وتارةً * حديثاً معانيه أدقَّ من السحرِ
له نبرات تطرب الصمَّ ولو دعا * بها الوحشُ لانقادت من السهل والوعرِ^(٢)

أما هذا الشاعر فيقول عندما تغني هذه المغنية نجود لها بكل ما نملك:
إذا ما فاتنُ غنتُ بصوتٍ * ترجّعه فويلٌ للجيوبِ
غناءً تجتني الأسماعُ منه * ثماراً تجتني ثمر القلوبِ^(٣)
أما القيسراني فوصف ذاك المغني والجماعة يرقصون كأنهم أغصان
هبت عليها ريح الصبا فقال:

والله لو أنصف الأقوامُ أنفسهم * أعطوك ما ادخروا منها وما صانوا
ما أنت حين تُغني في مجالسهم * إلا نسيمُ صَبَا والقومُ أغصانُ^(٤)
أما هذه إذا غنت فهي تجلب اللهو والسرور.

بيضاء يحضر طيبُ العيش ما حضرتُ * وإن نأتُ غاب عنك اللهو والفرحُ
كلُّ الثيابِ عليها معرضٌ حسنٌ * وكلما تتغنى فهو مُقترَحُ^(٥)

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٢٧.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٢٢٧.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٢٢٨.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٢٢٨.

(٥) نفس المصدر السابق، ص ٢٢٨، المعرض: ثياب تجلى فيها الجواري.

هذه المغنية عندما تعزف أوتارها توقظ الأشواق وتطرب كل محب
لنعومة ورقه صوتها.

لرِيَّا غِنَاءٌ إِذَا مَا شَدَتْ * تُمِيتُ قُلُوبًا وَتُحْيِي قُلُوبًا
تَغْنِيكَ أوتارَهَا قَبْلَهَا * فَتَتَرَكُ ذَا الشَّوْقِ صَبًا طَرُوبًا
أَرْقُ مِنَ الْمَاءِ مَاءُ الزَّلَالِ * وَأَشْهَى مِنَ الرَّاحِ حَسَنًا وَطِيبًا
وَأَنعمَ مِنْ لَذَّةِ الْعَاشِقِينَ * إِذَا مَا أَطَاعَ حَبِيبٌ حَبِيبًا^(١)

لقد تمنى هذا الشاعر أن يكون كل عضو في جسده أذن ليسمع ذلك
النغم الحنون التي تدمع الأجفان وتشفى السقيم.

عِيدَانُنَا مِنْ خَيْرِ مَا تَسْمَعُ * يُشْفَى بِهَا ذُو السَّقَمِ الْمَوْجِعُ
أوتارَهَا تَتَنَطَّقُ حَتَّى تَرَى * أَجْفَانُ ذِي الشَّوْقِ لَهَا تَدْمَعُ
لَقَدْ تَمَنَيْتُ لَهَا أَنْ لِي * فِي كُلِّ عَضْوٍ أَدُنَا تَسْمَعُ^(٢)
وقال آخر في ذات المعنى:

جَاءَتْ بِوَجْهِ كَأَنَّهُ قَمَرٌ * عَلَى قَوَامِ كَأَنَّهُ غُصْنُ
غَنَتْ فَلَمْ تَبْقَ فِيَّ جَارِحَةً * إِلَّا تَمَنَيْتُ أَنَهَا أُذُنُ^(٣)

عندما تغنى تبعد الهموم والأحزان قال الناجم:

مَا تَغَنَتْ إِلَّا تَكْشَفُ هَمٌّ * عَنْ فَوَادٍ وَاقْشَعَتْ أَحْزَانُ
تَفْضِلُ الْمَسْمَعِينَ طِيبًا وَحِذْقًا * مِثْلَ مَا يَفْضِلُ السَّمَاعُ الْعِيَانُ^(٤)
وقال أيضاً:

لَقَدْ بَرَعْتَ عَاتِبُ فِي الْغِنَاءِ * وَزَادَتْ وَأَرَبَتْ عَلَى الْبَارِعِ
يَسْبَحُ سَامِعُهَا مُعْجِبًا * فَأَصَوَاتُهَا سُبْحَةُ السَّامِعِ^(٥)

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٢٨.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٢٢٨.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٢٣٠.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٢٢٨.

(٥) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٢٨.

أما هذا المغني فله عزف هادئ رفيق يجعل المستمعين إليه في حالة
سكون وهدوء كأنهم نيام.

إذا ما حنّ مزهرها إليها * وحنّت نحو آذن الكرام
وأصغوا نحوها الأذان حتى * كأنهم وما ناموا نيام^(١)

أما هذا فيصف لها عوداً في حجر مغنية وكيف أنها تشد أوتارها حينما
ترتخي.

وكانها في حجرها ولد لها * ضمته بين ترائب وليان
أبدأ تدغدغ بطنه فإذا هفا * عرّكت له أذنّاً من الأذان^(٢)

يصف ابن المعتز لنا ذاك المجلس الذي ضم الفتيان والكهول وشبه لنا
غناء ذاك المغني بنوح الحمام، أما السقاة بين القوم فكأنهم ألفات بين السطور
حيث القوم جلوس^(٣).

ونداماي فتيةً وكهولاً * أتلفن مالهم نفوس كرام
بين أقداحهم حديث قصير * هو سحر وما عداه كلام
وغناء يستعجل الراح بالرا * ح كما ناح في الغصون الحمام
وكان السقاة بين الندامى * ألفات على سطور قيام^(٤)
وقال آخر يصف العود أيضاً:

إذا احتضنت عودها عاتباً * وناغته أحسن أن يعرباً
تدغدغ في مهل بطنه * فيسمعنا ضحكاً معجباً^(٥)

أما كشاجم^(٦) يصف لنا أنامل تلك المغنية وهي تداعب عودها وكيف
أنها بارعة وعالمة بما تعزف فقال:

وترى لها عوداً تحرّكه * وكلامه وكلامها وفقاً

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٢٨.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٢٢٩.

(٣) ابن المعتز سبق ترجمته.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٢٢٩.

(٥) نفس المصدر السابق، ص ٢٢٩.

(٦) سبق ترجمته.

لو لم تحركه أناملها * كان الهواء يفيدته نطقاً
جسّته عالمةً بحالته * جسّ الطبيب لمُدنف عرقاً
فحسبتُ يمناها تحركها * رعداً وخلتُ يسارها برقاً^(١)

يحب كشاجم هنا الصوت الخشن، وهي صفة مستحبة في الصوت
الأنثوي، وشبه صوت العود بأنين محب أضناه الشوق:

اشتهدى من الغناء بحلة حلق * ناعم الصوت متعب مكدود
كأنين المحبّ أضعفه الشوق * فضاهى به أنين العود^(٢)
كهبوب الصّبّا توسط حالاً * بين حالين شدة وركود^(٣)

قيل لرجل أي المغنين أحذق فقال: ابن سريح كأنه خلق من كل قلب،
فهو يغني لكل إنسان ما يشتهيّه نظم هذا القول ابن الرومي فقال:

كأنه قالبٌ لكل هوى * فكأنه والمنى على قدر^(٤)
أما هذا فوصف جمال صوت ذاك المغني فقال:

ومطربٍ صوته وفوه * قد جمعا الطيبات طراً
لو لم يكن صوته بديعاً * ما ملأ الله فاه دراً^(٥)

وهذا الشاعر يصف لنا ذاك الرقص الهادئ الجميل:

إذا اختلس الخطا واهتز لنا * رأيت لرقصه سحرًا مبيناً
يمس الأرض من قدميه وهنّ * كرجع الطرف يخفى أن يبينا
تري الحركات منه بلا سكون * فتحسبها لختها سكوناً^(٦)

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٢٨.

(٢) ضاهى: وازى، ساوى.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٢٢٩ - ٢٣٠.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٢٣٠.

(٥) نفس المصدر السابق، ص ٢٣٠.

(٦) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٣٠.

عندما تغنى المستمعين إليها يرقصون برؤوسهم ويتميلون طرباً قال
الناجم^(١).

تَأْتِي أَغْنَانِي عَاتِبٍ * أَبْدَأُ بِأَفْرَاحِ النَّفْسِ
تَشْدُو فَنَرْقِصُ بِالرُّؤُوسِ * لَهَا وَنَزْمَرُ بِالْكُؤُوسِ^(٢)
غناؤها كالبرء في الأجساد، هي تشدو والقوم يتعاطون الخمرة بشدة
ووله. وشبه أنحاء إبريق الخمر بالساجد.

لَهَا غَنَاءُ كَالْبَرِّ فِي جَسَدٍ * أَضْنَاهُ طَوْلُ السَّقَامِ وَالتَّرَحِّ
يَعْبِدُهَا الرَّاحُ كُلَّمَا صَدَحَتْ * ابْرِيقُهَا سَاجِداً عَلَى الْقَدَحِ^(٣)
المطلب الرابع: ما قيل في ذم بعض المغنيين:

بعض المغنيين لا يجيدون الغناء، والأبيات التالية ما قيل في ذم بعض
المغنيين.

يقول بهاء الدين الإربلي:

وَمَغْنٍ إِذَا تَغْنَى بِلَحْنٍ * أَوْرَثَ السَّامِعِينَ دَاءً عَضَالَا
سَامَنَا خَلْعَةً فَقَمْنَا إِلَيْهِ * وَخَلَعْنَا عَلَى قَفَاهُ النِّعَالَا^(٤)

أما هذا المغني فهو دائماً متطفل ولا يجيد الغناء:

وَمَسْمَعُ قَوْلِهِ بِالْكَرْهِ مَسْمُوعٌ * مُحَجَّبٌ عَنِ بَيْوتِ النَّاسِ مَمْنُوعٌ
غَنَى فَبَرَقَ عَيْنِيهِ وَحَرَّكَ لَحْـ * بِيهِ فَقُلْتُ الْفَتَى لَا شَكَّ مَصْرُوعٌ
وَقَطَعَ الشَّعْرَ حَتَّى وَدَّ أَكْثَرُنَا * أَنَّ اللِّسَانَ الَّذِي فِيهِ مَقْطُوعٌ
فَلَمْ يَأْتِ دَعْوَةَ أَقْوَامٍ بِأَمْرِهِمْ * وَلَا مَضَى قَطْ إِلَّا وَهُوَ مَصْفُوعٌ^(٥)

أما هذه فغناؤها بارد فتركها القوم وانصرفوا:

غَنَتْ فَلَمْ تُبْقَ لَنَا جُبَّةٌ * دَفِئُهُ إِلَّا لِبَسْنَانَاهَا

(١) سعد بن الحسن بن شداد، السمعي، أبو عثمان المعروف بالناجم توفي سنة ٣١٤هـ، فوات
الوفيات، ج ١، ص ١٢٧.

(٢) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٣١.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٢٣١.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٢٣٢.

(٥) نفس المصدر السابق، ص ٢٣٢.

فلو ترانا لو نرى جمرَةً * من شدة البرد أكلناها
فقال بعضُ القومِ كُفِّي فلم * تقبلُ فقمنّا وتركناها^(١)

أما هذا المغني لا فرق بين غناه والشتم:

غناؤك والشتمُ عندي سواءُ * وصمتك من كلِّ داعٍ دواءُ
فإن شئت غنى فأنت السقامُ * وإن شئت أسكتُ فأنت الشفاءُ^(٢)

وقال الصنوبري يهجو زامره سوداء^(٣).

وكأنما المزمارُ في أشداقِها * غُرمول عير في حياءِ أتانٍ
وترى أناملها على مزمارِها * كخنافسٍ دبَّت على ثُعبانٍ^(٤)

وغناء هذا المغني يجلب النعاس والسأم.

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٣٢.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٢٣٣.

(٣) الصنوبري هو: أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسين بن مراد، نشأ بطلب وقضى أكثر حياته فيها، له

ديوان شعر. الأعلام، ج ٢، ص ٣٣٥.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٢٢٣.

المبحث الثالث

وصف في الربيع والرياح والأزهار والسحاب

المطلب الأول: الربيع:

فصل الربيع من الفصول ذو النكهة والطعم المميز في نفوس الناس بصفة عامة والشعراء بصفة خاصة، الأرض تكتسي بالخضرة الزاهية وأنواع مختلفة من الأزهار والورود، الطيور هائمة في الأجواء مغردة، الأشجار يكسوها النور، الأنهار تسيل مُناسبة أما الشواطئ فتحيط بها الخضرة من كل جانب.

أما البحثري^(١) فيرى أن الربيع يعيد الحياة، ويوقظ الورد والأزهار ويرد على الأشجار لباسها، ويعيد لكل أجزاء الطبيعة أصباغ مختلفة الألوان والأشكال قائلاً:

أتاك الربيعُ الطَّلَقُ يختالُ ضاحكاً * من الحُسنِ حتى كاد أن يتكلماً
وقد نبّه النيروزُ في غَسَقِ الدُّجى * أوائلُ وردٍ كُنَّ بالأمسِ نوماً
يُفَتِّحه بردُ النَدَى فكأنه * يبتُّ حديثاً كان قبلُ مَكْتَمَا
ومن شجرٍ ردَّ الربيعُ لباسه * عليه كما نَشَرَتْ وَشياً مُنَمَّما
أحلَّ فأبدى للعيونِ بِشاشَةً * وكان قذى للعينِ إذ كانَ محرماً^(٢)

يصف ابن طباطبا^(٣) الربيع حيث الأزهار والورد، أما النور فتتساقط كالعقد الذي انفرط سلكها، أما الأفاحي فدوماً باسمه.

أما ترى الأيامَ كيف تتوجتُ * وربيعُها والِ عليها قِيَمُ
حُلِيَتْ به الدنيا وكانتَ عاطلاً * فقعودُها في كلِّ فجٍ يُنظَمُ
فانظرْ إلى زهرِ الرياضِ كأنه * وشي تُنَشِّره الأكفُ مُنَمَّمُ

(١) سبق ترجمته.

(٢) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٣٥-٢٣٦.

(٣) أبو القاسم أحمد بن محمد بن إسماعيل، كان نقيب الطالبين بمصر ومن أكابر رؤسائها، له شعر مليح في الزهد والغزل، توفي سنة ٣٤٥هـ وعمره ٦٤ سنة.

فالنور يهوى كالعقود تبددت * والوردُ يخجل والأقاحي يبسمُ
ويكادُ يضحى الدمع نرجسه إذا * أضحى ويقطرُ من شقائقه الدمُ^(١)

والشاعر الزاهي^(٢) أيضاً له وقفات مع الربيع:

هذا الربيعُ وهذه أزهاره * طابت ليلاليه وطابَ نهاره
دريئة أنوارُه فضيئة * أنهاره ذهبيئة أشجاره
والماءُ فضيُ القميصِ مفروز * ببنفسجٍ واللازوردُ شعاره
وترنمت عجمُ الطيورِ كأنها * سربُ القيّانِ ترنمت أوتاره
فاشربْ على وردِ الخدودِ يحثه * وردُ الربيعِ تحفّه أنواره^(٣)

رسم الصنوبري صورة بديعة للربيع:

ما الدهرُ إلا الربيعُ المستنيرُ إذا * أتى الربيعُ أتاكَ النورُ والنورُ
فالأرضُ فيروزج والجو لؤلؤة * والروض ياقوتة والماء بلور^(٤)

وقال آخر يصف هذا الجمال المرئي والمسموع:

وحظُ عينٍ وحظ سَمعٍ ربيعا * ن وتغريدُ بلبلٍ وهزارِ
في جلاءٍ من الزمانِ ووجهُ الـ * أرضٍ يكسى وشائع النّوارِ
كلما أشرفت الأقاحي * خلت إحدى الشموس شمسَ النهارِ^(٥)

الورق تتغنى والطيور تتناجي أما الأغصان فتتهتز طرباً ونشوى. ابن

الرومي^(٦):

حيثك عنا شَمألُ طابَ ريقُها * تحيةً فجرت رُوحاً وريحاناً
حيث سُحيراً فناجى الغصنَ صاحبه * سراً بها وتنادي الطيرُ إعلاناً
ورقٌ تغنى على خُضرٍ مُهدلة * تسمو بها وتمس الأرضُ أحياناً

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٤٤.

(٢) سبق ترجمته.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٢٤٥.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٢٤٠.

(٥) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٤٥.

(٦) سبق ترجمته.

تَخَال طَائِرَهَا نَشْوَانٌ مِنْ طَرِبٍ * وَالْغَصْنُ مِنْ هَزَةٍ عَطْفِيهِ نَشْوَانَا^(١)
منظر الربيع أسر ابن الساعاتي^(٢) فقال:

يَا حَبِذَا زَمَنُ الرَّبِيعِ وَدَوْحُهُ * قِيدُ الْخَوَاطِرِ بَلْ عَقَالُ الْأَنْفَسِ
جَلِيتْ عَرَائِسُهَا فَهَمَّ قُلُوبُنَا * وَاللَّهُوُ بَيْنَ مَقْوُضٍ وَمَعْرَسِ
أَنْفَاسُهُ مِنْ عَنَبٍ وَسَمَاوِهِ * مِنْ لَوْلُوٍ وَبَسَاطُهُ مِنْ سِنْدَسِ^(٣)
وقال أيضاً زهرة الأقحوان ضاحكة ورائحة الجو كالمسك والطلُّ
يتساقط بانتظام:

انظر إلى نسج الربيع وحوكه * وَالشَّمْسُ تَرْقُمُ مَا السَّحَابُ تُحِبُّ
وَالْأَرْضُ تُجَلِي فِي مَعَارِضِ سِنْدَسِ * وَالنَّهْيُ رَدَنَ وَالنَّسِيمُ يُفَرِّكُ
حَيْثُ الْوَجُوهُ مِنَ الْبَقَاعِ سَوَافِرِ * وَالْأَقْحَوَانُ بِهَا تُغَوِّرُ تَضَحُّ
وَفَضَاءُ هَاتِيكَ السَّمَاءِ مَعْبَرُ * وَنَسِيمُ ذَاكَ الْجَوِّ مِنْهُ مُمَسِّكُ
وَالطَّلُّ فِي جِيدِ الْغُصُونِ مَنْظَمُ * وَعَلَى السَّهُولِ مَبْدَدٌ لَا يُسَالِكُ
كَمْ فَضٍّ فِي بَطْحَائِهَا مِنْ فَضَةٍ * بَدَدٌ وَتَبَرُّ لَوْ يُصَاغُ وَيُسَبَّكُ^(٤)
الشاعر بهاء الدين الإربلي^(٥) أيضاً من عُشَّاقِ الربيع وقد وصفه بدقة
العارف.

هَذَا الرَّبِيعُ وَنَشْرُهُ * قَدْ فَاحَ طَيْباً نَشْرُهُ
وَالْوَرْدُ وَجَنَّتُهُ وَأَنْثَى * وَوَارُ الْأَقْحَاحِي ثَغْرُهُ
وَبَدَا يَرُوقُكَ نَبْتُهُ * الْحَسَنُ الْبَدِيعُ وَزَهْرُهُ
وَتَرَاقَصَتْ أَغْصَانُهُ * طَرِباً وَصَفَقَ نَهْرُهُ
وَأَذَاعَ أَسْرَارَ النِّبَاتِ * بِهِ النَّسِيمُ وَمَرُّهُ
ويدعو ندمانه للشرب في وسط هذه الأجواء :

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٤٦.

(٢) سبق ترجمته.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٢٤٩.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٢٤٩.

(٥) سبق ترجمته.

وكان عطاراً تضيوع * في رباه عطره
 شكر الثرى صوب الحيا * فبدا لعينك شكره
 وأجاد في تقريظه * نظم الربيع ونثره
 فاشرب على الزهر الجنى * فعمر عيشك عمره
 فالصب فيه هل يجو * ز عن المدامة صبره^(١)

أهاجت تغريد ذلكم الطيور لواعج هوى قديم في نفس الشارع وتذكر
 أيام الصبا واللهم في وسط الرياض البهية فقال محيي الدين^(٢):

حياك ربيع من فصاح أعاجم * بأخضر مياد من البان ناعم
 وطرتن في خضراء مونة الثرى * قريبة عهد بالعهد الروازم
 لقد هاج لي تغريدكن عشية * لواعج شوق من هوى متقادم
 وتذكر أيام قصار تضرمت * كما اكتحلت بالطيف أجفان حالم
 نعم واكتسى مغناك يا درة الحمى * ملابس من وشى الرياض النواجم
 إذا أسبلت فيها الغوادي دموعها * حكت ثغر مفتر عن النور باسم^(٣)

يحلو العيش في زمن الربيع، حيث الخضرة الدفافة والأنهار المتسلسلة
 أما الرياض فتكسوه الأزهار والورد، أما الحمام فتغريدهن قد ملأت الأجواء
 وهي تطير في فرح وصبور، محيي الدين بن زيلاق.

هنيئاً لقد أعطتك أيامك المنى * وناجاك بالوصل الحبيب فأعلننا
 فلا تبغ في ذاك التستر لذة * وبع باسم من تهوى وذرنى من الكنى
 ألت ترى أرض الحمى حلها الحيا * فحلى ربها بالنبات وزينا
 جلاها على أبصارنا فاتجلت لنا * وقد كسيت زهر الرياض ملونا
 مغاني من نظم الربيع دقيقة * يرى فضل هذا الفضل فيهن بيينا
 حلا العيش فيها فأملأ الكأس مرة * يطوف بها مستعذب اللفظ والجنى
 يمس ويشدو والأراكة رجحت * على عودها ورقاء محسنة الغنى

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ٢٥٦.

(٢) سبق ترجمته.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٢٥٢.

فتثنى إليه كلُّ قلبٍ إذا شدَّ * ويثنى عليه كلُّ غصنٍ إذا انتثنى
وأصبح من وجه الغزالة إذ بدا * وأملح من لحظ الغزال إذا رنا
غدا جفنه والخصر منه وعهده * وجسمي كل يشتكي سورة الضنا
يطاع وإن عاصي ويذني وإن نأى * ويهوى وإن عادى ويعذر إن جنى
رآني محنى الضلوع على جوى * فما رق لي مما ألقى ولا حنا^(١)

أما في هذه الأبيات على الأسواري يرحب بقدم الربيع، مشبهاً خضرة
الروض وانتشار الأزهار بالسماء يزينها النجوم.

أوائل رسل الربيع تقدمت * على حسن وجه الأرض خير قدوم
كأن اخضرار الروض والزهر طالع * عليه سماء زينت بنجوم
إذا افتضها طرف البصير بلحظه * توهمها مفروشة برقوم
تردت بظل دائم وتضاحكت * بضحك بروق في بكاء غيوم
فأوردها فحل السحاب غرائساً * ضعاف القوى من مريض وفطيم
كمثل نشاوى الراح تلثم دائباً * إذا الريح جادت بينها بنسيم^(٢)

المطلب الثاني: الرياض:

الطبيعة هي ملهمة الشعراء، لذلك نجد الشعراء العباسيين أضافوا
للأدب العربي كثيراً بأشعارهم الجديدة الجميلة في وصف الطبيعة، تاركين
وصف الأطلال والديار الدارسة، ومن ذلك قول ابن الرومي:

لهوت عن وصف الطلول
بروضة عذراء غير عانسة
جادت لها كل سماء راجسة
فأصبحت من كل وشى لابسنة^(٣)

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٥٢.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٢٤٥.

(٣) ديوان ابن الرومي، تحقيق حسين نصار، ج ٣، مطبعة دار الكتب، مصر، ١٩٧٦م، ص ١١٧٦.

يصف ابن الرومي روضة عذراء بكر، جادت عليها السماء بالأطمار
الغزيرة فألبستها ألواناً مختلفة من الأزهار، هذه الروضة شغلته وصرفته عن
وصف الأطلال القديمة وانشغل بوصف الطبيعة الخلابة الجميلة.
أما عبد الله بن المعتز^(١) فيصف لنا تلك الليلة الممطرة، وكيف اكتست
الأرض بالخضرة، ويصف لنا حبات الندى على أوراق تلك الأزهار المختلفة
الألوان فقال:

قد اغتدى على الجياد الضمر * والنجم في طرة صبح مسعر
كأنه غرة مهر أشقر * والوحش في أوطانها لم تتفر
والليل معسول بليلى ممطر * كالعصب أو كالوشى أو كالجوهر
من أبيض وأصفر وأحمر * والأرض رياء ذات عود أخضر
ملتحف بالورق المنتشر * فيه الندى مستوقف لم يقطر^(٢)

لم يخل الشعر الجاهلي من وصف الرياض والأزهار، ولا سيما في
أقوال الشعراء الذين خالطوا الحضارة ورأوا بساتين الحيرة أو غوطة الشام
وغيرها من مدن العراق كأعشى بكر القائل في وصف روضة:

ما روضة من رياض الحزن معشبة * خضراء جاد عليها مسبل هطل
يضاحك الشمس منها كوكب شرق * مؤزر بعيم النبت مكتهل
يوماً بأطيب منها نشر رائحة * ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل^(٣)

يصور ابن المعتز جمال تلكم الروضة التي طالما تردد إليها كثيراً
وانطبع كل جماليات الروضة بداخله. يدعو لها بالسقيا ويصورها لنا وقت
صروف الدهر قائلاً:

ما مثل منزلة الدويرة منزل * يا دار جادك وابل فسقاك

(١) عبد الله بن محمد بن المعتز بن المتوكل، الأمير الأديب صاحب الشعر البديع والنثر الفائق، أخذ
الأدب والعربية عن المبرد وثعلب وعن مؤدبة أحمد بن سعيد الدمشقي، مولده في شعبان سنة ٢٠٥
سبع وأربعين ومائتين. وقتل سراً في ربيع الآخر سنة ست وتسعين ومائتين. الوافي بالوفيات،
ج ١٧، ص ٤٤٧.

(٢) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٣٥.

(٣) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٣٥.

- بؤسي لدهرٍ غيرتك صروفه * لم يمح من قلبي الهوى ومحاك
 لم يحل للعينين بعدك منظر * ذمّ المنازل كلهن سواك
 أي المعاهد منك أندب طيبه * ممسك ذا الآصال أم معدادك
 أم برد ذلك ذي الغصون وذي الجنى * أم أرضك الميناء أم ريّاك
 وكأنما سطعت مجامر عنبر * أو فت فار المسك فوق ثراك
 وكأنما حصباء أرضك جوهر * وكأن ماء الورد قطر ندادك
 وكأنما أيدي الربيع نديّة * نشرت ثياب الوشى فوق رباك
 وكأن درعاً مفرغاً من فضة * ماء الغدير جرت عليه صباك^(١)

أما هذا الشاعر فيصف لنا قطرات الندى ليلاً وكيف أنها أثقلت الأزهار والورود فقال:

- بكين فأضحكن الثرى عن زخارف * من الروض عنهن الندى متهايل
 ترى قُضب الياقوت تحت زبرجد * تنوء به أعناقهن الموائل
 تلحها الأنداء ليلاً بريقها * فيصبحن أبكاراً وهنّ حوامل^(٢)

وصف أبو هلال هذه الروضة وأطيارها وأزهارها قائلاً:

- لبس الماء الهواء صفاء * واكتسى الروض بهجة وبهاء
 وتخال السماء بالليل أرضاً * وترى الأرض بالنهار سماء
 جللتها الأنوار زهراً وصيفراً * يوم ظلت تنادم الأنواء
 وترى السرو كالمنابر تزهى * وترى الطير فوقها خطباء^(٣)

أما هذا الشاعر فيدعو ندمانه ليهبوا ويتمتعوا بجمال ذاك الرياض الممتلئة بمختلف الأزهار والورود. ويدعوهم لتناول الراح في وسط هذه الجماليات يقول ابن التعاويذي:

- يا صاح قم فوجوه اللهو سافرة * وناظم الهم بالأفراح قد طرفاً
 أما ترى الأرض في حلى الرياض وقد * أهدت لطرفك من أزهارها طرفاً

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٣٥.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٢٤٣.

(٣) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٤٣ - ٢٤٤.

كسَا الربيعُ ثراها من خمائله * رِيطاً وألقى على كُثبانها قَطفَا
والغيمُ بأكٍ وثغرُ النورِ متبسمٌ * وطائرُ البانِ في الأغصانِ قد هَتَفَا
والغصنُ ريانُ لدُنْ العطفِ قد عقدتُ * لالئُ الطلِّ في أوراقه شَنَفَا
فانهض إلى الراح واعذرُ في الغرام بها * لا تلحُ من باتَ مشغوفاً بها كِلَفَا^(١)

الجو معطر والنرجس يرقص، أما الأرض فقد اكتست بالنور والأزهار، أما الأطيّار فهي على البان تغرد وتشدو. الإربلي:

وافي بما تبغيه أذارُ * وغرّدت في البانِ أطيّارُ
وابتسم الروضُ فدمعُ الحيا * على ابتسام الروضِ مِذرارُ
واكتست الأرضُ به سندساً * طرازه نورٌ وأنوارُ
ولاحَ في أرجائه نرجسُ * ناظرُهُ للصَّبِّ سَحارُ
وحملَ النّمامُ ريحَ الصَّبَا * سِراً فذاعتُ منه أسرارُ
فحثّها حمراءُ مشمولةً * كأنّها في كأسِها نارُ
من كفَّ هيفاءَ غلاميةً * في فمِها المعسولِ خمارُ^(٢)

أما هذا الشاعر فلم ير منظراً أبهى وأجمل من هذه الروضة يقول ابن السروري^(٣):

مررتا على الروضِ الذي طلّه الندى * سُحيراً وأوداجُ الأباريق تُسفكُ
فلم أرَ شيئاً كان أحسنُ منظراً * من الروضِ يجري دمعُه وهو يضحكُ^(٤)

أما البحتري فيقول:

أما الرياضُ فقد بدتُ ألوانها * صاغتُ حلى فنونها أفنانها
دقتُ معانيها ورقً نسيماً * وبدتُ محاسنها وطابَ زمانها^(٥)

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ١٥١.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٢٥٥ - ٢٥٦.

(٣) أبو العلاء السروي، من شعراء اليتيمية، له مساجلات مع ابن العميد.

(٤) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٣٩.

(٥) نفس المصدر السابق، ص ٢٤٠.

لقد رسم ابن الساعاتي^(١) لوحة خلاصة في هذا المقطع، الرعد يشدو
والحيا يسقى، أما غصو البان فترقص طرباً، أما الساقى فهو كالبدر، أما
قطرات الماء فهي تسقط كالنبال:

لله يوم النيرين ووجهه * طلق وثغر اللهو ثغر أشنب
وكأنما فنن الأراكاة منبر * وهزاره فوق الذوابة يخطب
الرعد يشدو والحيا يسقى * وغصن البان يرقص والخمائل تشرب
وكأنما الساقى يطوف بكأسه * بدر الدجى في الكف منه كوكب
بكر بها نقع الغليل ومعجب * نقع الغليل بجذوة تتلهب
حمراء حار بنا الصروف بصرفها * فزجاجها بدم الخطوب مخضب
والقطر نبل والغدير سوابغ * موضونة والبرق سيف مذهب^(٢)
ويقول ابن الساعاتي أيضاً:

يا نديمي والنديم معين * وخليلي والخليل شفيق
ما لوجه الدنيا يذم وقد * أصبح وجهاً جماله مرموق
ففضيب عليه للطير شدو * وغدير لمائه تصفيق
هزت البان كالقود وقد * ضرّج فيها مثل الخدود الشقيق
حيث ذيل الصبا بليل بها يسـ * حب وجيب نشرها مفتوق
وصباحك ضوء كأس وثغر * ومدامك كأس خمر وريق^(٣)

أما هذا الشاعر فوصف ذاك الوادي الكثيف الأشجار قائلاً:

وقائنا لفحة الرمضاء وإـ * وقاه تضاعف النبات العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا * حنوّ المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زللاً * أذ من المدامة للنديم

(١) ابن الساعاتي: أبو الحسن بن علي بن رستم المعروف بابن الساعاتي، الشاعر المشهور، شاعر
مبرز في حلية المتأخرين، له ديوان يقع في مجلدين، وديوان آخر سماه (مقطعات النيل)، توفي
عام ٦٠٤ هـ بالقاهرة ودفن في سفح المقطم. وفيات الأعيان، ج ٣.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٢٤٨.

(٣) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٤٩.

يُروغُ حصاهُ حاليّة العذارى * فتلمسُ جانبَ العقدِ النظيم
يصدُ الشمسُ أنّى واجهتنا * فيحبّجُها ويأذنُ للنسيم^(١)

كأن الشقيق خدود زادها العتب نضارة وتوردا، والنرجس عيون ينفث
سحرها، والأقاصي تغور تفتّر عن طلع كالبرد، جالت دموع الطل في وجنات
الورد، باح النسيم بسر الخزام، وصدحت الطيور واتخذت من الأغصان
منابر، أشبهت الأرض السماء بنجوم الأزهار وزرقة المياه، فكأن الأرض
فيها مرآة صقلتها يد الأنواء.

قال بهاء الدين الإربلي:

جاد السحابُ على الثرى بعوارفٍ * أهدت إليه الوشى من صنعائه
وكسا الربيع ثرى البسيطة ملبساً * قد حاكه صوبُ الغمام بمائه
فسماؤه للنّاظرين كأرضيه * تُبدى النجوم وأرضه كسمائه
باح النسيم بسرّه إذ أصبح * القدّاح والنمّام من أمائه
والفصل ليل كُله أو ما ترى * زهر النجوم تلوح في أرجائه
والطلّ ينشرُ في الرياضِ دموعه * والزهرُ يضحكُ في خلال بكائه
وتخال أنفاسَ النسيمِ عليلّةً * عجباً وتنفى الصّب من بُرحائه
وكأنما الأغصانُ فيه منابرُ * والناطقاتُ العجمُ من خطبائه
فاشربُ على زهرِ الرياضِ مُدامةً * تُثنى الحليمُ أخا الحجى عن رائه
من كفٍّ ممشوق القوامِ مقرطقٍ * يُصبى القلوبَ بحسنه وغنائه^(٢)

وقال في أخرى:

قسماً بالرياضِ بآكرها * صوبُ سحابٍ فأبدت الأزهارا
ضحكتُ إذ بكى السحابُ وماستُ * إذ كساها حوْكُ النسيمِ إزارا
وأرتنا منابر من غصون * وسمنا خطيبهن الهزارا
وحسبنا الشقيقَ فيها خدوداً * زادها العتب نضرةً واحمرارا

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٣٨.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٢٥٥.

وكان الأغصان هيفُ خدودِ * تتعاطى تمايلاً واهتصاراً^(١)
وقال أيضاً:

فما روضةً حادها وابلٌ * وسحَّ عليها مُلثٌ رُكَّامٌ
يميسُ بها زهرها ضاحكاً * فيا عجباً من بُكاءِ الغمامِ
ويفتَرُّ ثغرُ الأقاحي بها * كما انجابَ عن ثغرِ صُبْحِ ظلامِ
ويحمر من خجلٍ وردها * كخد الحبيب لسمع الملامِ
إذا أرقص الدوح مر الصبا * تغنى على العذبات الحمامِ
كان الشقيق خدود الحبيب * ودمع المحب ولون المدامِ
وتحلف إن نفحت نفحة * بأن النسيم مطايا الخزامِ^(٢)

أما محبى الدين^(٣) فيصف لنا روضة في دمشق، الغصون ترقص
طرباً والماء يصفق، والقاصدون إما عاشق أو متشوق فقال:

أدمشق لا زالت تجودك ديمةً * يزهو بها زهرُ الرياضِ ويونقُ
أهوى لك السقيا وإن ضنَّ الحيا * أغناك عنه وماؤك المتدفقُ
ويود قلبي ولو تصح لي المنى * إني أنالُ بك المقامُ وأرزقُ
وإذا امرؤُ كانت ربوعُك حظه * من سائر الأمصار فهو موفقُ
أنى التفت فجداولٌ متسلسلٌ * أو جنةٌ مرضيةٌ أو جوسقُ
وإذا رأيت الغصنَ ترقصه الصَّبَا * طرباً رأيت الماءَ وهو يصفقُ
وترى من الغزلانِ في ميدانها * فرقاً أسودُ الغيل منها تفرقُ
والقاصدون إليه إما شائقٌ * متنزه أو عاشقٌ متشوقُ
لا تكذبين فما اللذذةُ والهوى * ومواطنُ الأفراحِ إلا جَلَقُ^(٤)

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٥٦.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٢٥٦ - ٢٥٧.

(٣) محبى الدين يوسف بن يوسف بن زيلاق، الكاتب الهاشمي الموصلية، يضرب به المثل
في العدالة، عالم بلغة العرب، قتله التتار سنة ٦٦٠هـ. ذيل مرآة الزمان، ج ١، ص ٥١٣، فوات
الوفيات، ج ٤، ص ٣٨٤.

(٤) كتاب التذكرة، الفخرية، لبهاء الدين الإشبلي، ص ٢٥٢ - ٢٥٣.

يشخص هذه الرياض، ويخلع عليها ثوباً من الحياة والحركة، فيجعل أرضها تختال بنفسها اختيال الفتاة في ثيابها الأنيقة، ويجعلها تحس وتعقل وتشكر السماء على هذا الخير الوفير الذي بعثته لها. ويجسم النسيم فيصور سريانه معطراً الجو بأريحية كمسرى الأرواح في الأجساد. أما الرياح يصورها تنطق كما تنطق ألسنة الناس يقول ابن الرومي^(١):

ورِياضٍ تخايل الأرض فيها * خيلاء الفتاة في الأبرادِ
ذاتٍ وشيٍ تكلفته سوارٌ * لبقاتٍ تحوكلها وغوادي
شكرتُ نمةً الولي على الوسمى * ثم العهد بعد العهدِ
فهي تثنى على السماء ثناءً * طيبٌ النشر شائعاً في البلادِ
بنسيمٍ كان مسراه في الأرواح * مسرى الأرواح في الأجسادِ
تداعى فيها حمائمٌ شتّى * كالبواكي وكالقِيانِ الشوادي
حملتُ شكرها الرياحُ فأدت * ما تؤديه ألسُنُ العوادِ^(٢)

المطلب الثالث: الشقائق:

جاء في نهاية الإرب إنها سُميت بالشقائق لحرمتها، تشبيهاً لها بشقيقة البرق، والنعمان اسم الدم، وشقائقه قطعاً منه فشبهت حرمتها بجمرة الدم. ويقال: أضيفت الشقائق إلى النعمان لأنه حمى أرضاً كثر فيها هذا الزهر. والشقائق تنبت في صدر الربيع، فهي طليعة الأزهار، ترصع بساط المروج بلونها الياقوتي الأرجواني القاني، الذي يضم في الوسط سواداً أكحل كالمسك، والمقل السوداء.

شقائق النعمان كالثياب التي ارتوت بالدماء.

وروضٍ ناضرٍ قد أضحكته * شآبيبُ السحائبِ بالبُكاءِ
كانَ شقائقُ النعمانِ فيه * ثيابٌ قد رُوِيْنَ من الدِّماءِ^(٣)

(١) سبق ترجمته.

(٢) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٣٦.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٢٣٦.

يصف الشاعر الشقيق والورد يقول الكندي:

أَهْدَى الْحَيَا لِلْوَردِ فِي وَجَنَاتِهِ * خَجلاً وَزَادَ الْيَاسْمِينَ غَرَامَا
وَتَشَقَّقْتُ قَمَصُ الشَّقِيقِ فَخَاتِهِ * فِي الرُّوضِ كَاسَاتٍ مِلْنِ مُدَامَا^(١)
أما البحتري فيقول:

يَذْكُرُنَا رَوْضُ الْأَحْبَةِ كَلَمَا * تَنْفَسَ فِي جُنْحٍ مِنَ اللَّيْلِ بَارِدِ
شَقَائِقُ يَحْمِلُنَ النَّدى وَكَأَنَهَا * دَمَوْعُ التَّصَابِي فِي خُدُودِ الْخِرَائِدِ^(٢)
الشقائق في حمرتها دائماً يشبه بالخدود، أما السواد الذي في وسط فهو
مثل الخال في الخد.

وَرِياضٌ بَدِيعَةُ الْأَلْوَانِ * لَاحَ فِيهَا شَقَائِقُ النِّعَمَانِ
كَخُدُودٍ مُضَرَّتٍ عَلَيْهَا * مِنْ غَوَالٍ كَهَيْئَةِ الْخَيْلَانِ^(٣)
الشاعر يصف جمال الشقائق وكأنها مشتعلة على الأغصان يقول
كشاجم:

انْظُرْ بَعَيْنِيكَ أَغْصَانَ الشَّقَائِقِ فِي * فُرُوعِهَا زَهْرٌ فِي الْحُسْنِ أَمْثَالُ
مِنْ كُلِّ مَشْرِفَةٍ الْأَغْصَانِ نَاضِرَةٌ * لَهَا عَلَى الْغُصْنِ إِيقَادٌ وَإِشْعَالُ
وَكَأَنَّهَا وَجَنَاتٌ أَرْبَعٌ جُمِعَتْ * وَكُلُّ وَاحِدَةٍ فِي صَحْنِهَا خَالُ^(٤)
باح النسيم بسر الخزام، والشقيق خدود زاده العتب نضارة وتوردا،
الحمام تصدح والأغصان ترقص الإربلي:

فِي رِيَاضٍ يُبَوِّحُ فِيهَا نَسِيمٌ * الرِّيحُ أُنَّى سَرَى بِسَرِّ الْخُزَامِ
وَكَأَنَّ الشَّقِيقَ فِيهَا خُدُودٌ * ضَرَجَتْهَا قَسَاوَةُ اللَّوَامِ
وَتُخَالُ الْأَغْصَانُ هَيْفُ خُدُودٍ * رَاقِصَاتٍ عَلَى غَنَاءِ الْحَمَامِ^(٥)

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٤١.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٢٤٢.

(٣) نفس المصدر السابق، ٢٤٦-٢٤٧ ٢٤٥.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٢٤٨.

(٥) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٥٧.

وهذا الشاعر يصف الشقائق والأقاحي والنجس، أما الطل دموع
جالت في وجنات الورد المنثور يقول أبو هلال:

وروضةً حاليَّةُ الصُّدُورِ * كاسيَّةُ البطونِ والظهورِ
شقائقُ كناظرِ المَخمُورِ * واقحوانٌ كثغورِ الحورِ
ونرجسٌ كأنَّجَمِ الديجورِ * والطلُّ منثورٌ على المنثورِ^(١)
وقال آخر:

لله أيامي به وكؤوسُنا * تكسو بأرديةِ الطلَى الطلَّاءَ
في روضةٍ تبدي البنفسجَ أوطفأً * والوردُ أحمرُ والشقائقُ أكحلا
وتُريك خدَ الجنَّارِ مثلما * مرأى وثغرُ الأقحوانِ مقبلا
وتثيرُ أنفاسَ الشمائلِ عنبراً * وتديرُ أكواسَ الجداولِ سلسلا^(٢)
الأقاحي:

الأقحوان لونها أبيض ناصع ودائماً نجدها في مواضع تشبيهه ثغور
الحسان عند الشعراء، وتشبيهه الشيب به من التشبيهات النادرة ولا يرد إلا
قليلاً وقد أتى به البحراني في قوله:

عزلتني في عشقها أم عمرو * هل سمعتم بالعازل المعشوق
ورأت لمة ألم بها الشيب * فريعت من ظلمة في شروق
ولعمري لولا الأقاحي لأبصرت * أنيق الرياض غير أنيق
الأقحوانات محفوفة بالورد وريح الصبا تعبت بها يقول الجدلي:

لدى أقحوانات حفت بناصع * من الورد مخضر الغصون نضيد
تميلها أيدي الصبا فكأنها * ثغور هوت شوقاً لعض خدود^(٣)
النور تتساقط والأقاحي يبسم. ابن طباطبا:

فانظر إلى زهر الرياض كأنه * وشى تنشره الأكف منمنم
فالنور يهوى كالعقود تبددت * والورد يخجل والأقاحي يبسم

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٣٦.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٢٥٠.

(٣) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٣٨.

وصور ابن المعتز هذه الروضة بقوله:

قد نسج القطرُ حلةَ الزهرِ * فالعينُ محسودةٌ على النظرِ
وأبدت الأرضُ حسنَها وغدت * مثلَ عروسٍ تجلَّى على البشرِ
ولؤلؤُ الأقحوانِ منتظم * على قميصٍ لها من الخضرِ^(١)
المطلب الرابع: النرجس:

لقد أكثر الشعراء من ذكر الأزهار والورود بألوانها وأشكالها المتعددة ومرد ذلك لتأثرهم بجمال الطبيعة الساحرة وبالمناظر الحضارية، لذا استمد الشعراء تشبيهاتهم من الرياض والأزهار ورأوا فيها مصدراً خصباً يأخذون منها صورهم ويشكلونها من موادها.

زهرة النرجس دائماً نجدها في مواضيع تشبيه العيون وهي من طلائع أزهار الربيع لها زهرة بيضاء مستديرة^(٢).

قال صاحب بهاء الدين الإربلي: كتب إليّ شخص بيتين للمغاربة في تفضيل الورد على النرجس وهما:

من فَضَّلَ النرجسَ في حُلْمِهِ * وهو على الوردِ الذي يَرَأْسُ
أما ترى الوردَ غداً قاعداً * وقام في خدمته النرجسُ^(٣)
وطلب أن أعكس المعنى وأفضل النرجس فقلت بديهاً:

لم يكن الوردُ كما أخبروا * وأعتقدوا في جهلهم قاعداً
لكن رأى النرجسَ لما بدا * فخرَّ من هيبتِهِ ساجداً^(٤)
وهذه الأبيات أيضاً للإربلي:

النرجسُ الغضُّ له حشمةٌ * مكتومةٌ لكنها تُعلمُ
يقومُ في الخدمة من فضله * وسيدُ القومِ الذي يخدمُ^(٥)

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٤٦.

(٢) البستاني، المحيط، ص ٨٨٧.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٢٣٧.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٢٣٧.

(٥) نفس المصدر السابق، ص ٢٣٧.

في هذه الأبيات التالية يشبه ابن المعتز^(١) قطرات الندى بالدموع:
 كأن عيونَ النرجس الغضَّ بيننا * مداهنُ دُرٍّ حشوهُنَّ عقيقُ
 إذا بلهنَّ القطرَ حَلَّتْ دموعها * دموعُ عيونٍ كحلهنَّ خلوق^(٢)
 شبه لنا ابن الرومي تساقط الدموع بقطرات الندى والعيون بالنرجس
 والخدود بالورد فقال^(٣):

لو كنتَ يومَ الوداعِ حاضرنَا * وهُنَّ يطفين غلةَ الوجدِ
 لم ترَ إلا الدموعَ سائلةً * تقطرُ من مقلّةٍ على خدٍ
 كأن تلكَ الدموعَ قطرُ ندى * تقطرُ من نرجسٍ على ورد^(٤)
 أما أبو نواس فشبه لنا النرجس بالعيون مع اختلاف في الشكل:

لنا نرجس غَضَ القطافِ كأنه * إذا ما منحناه العيونَ عيونُ
 مخالفة في شكلهن فصفرة * مكانَ سوادٍ والبياضُ جفون^(٥)
 النرجس في هذه الروضة إذا هبت عليه الريح وقربته من بعض كأنه
 أقداح ياقوت أبيض تحملها أصابع مثل اللؤلؤ، ويقصد بالأنامل الفروع التي
 تحمل زهرة النرجس.

كأنما النرجسُ في روضةٍ * إذا أتته الريح من قرب
 أقداحُ ياقوتٍ تعاطينها * أنامل من لؤلؤ رطب^(٦)
 وقال آخر:

سعى ساعٍ إليّ بكأسٍ خمر * وباكّة نرجسٍ فسقى وحيّا
 تعالوا فانظروا قمراً منيراً * سقى شمساً وحيّا بالثريا^(٧)

(١) سبق ترجمته.

(٢) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٣٦.

(٣) سبق ترجمته

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٢٤٢.

(٥) نفس المصدر السابق، ص ٢٤٢.

(٦) نفس المصدر السابق، ص ٢٤٧.

(٧) نفس المصدر السابق، ص ٢٤٧.

أما الفهمي فيدعو للنجس بالسقيا، ويتراءى النرجس كأنه يلمح
الجلال والندامى:

سُقيا لـنـرجسِ روضـةٍ * أبـدى لنا بـدعَ الفنـونِ
أحـداقـه زعـفـرانٌ * بـين كـافـور الجفـونِ
فـنـسـيـمـه رـوح الحـيـاة * ولحـظـه دـاعـى الفـتـونِ
لـم لا تـهـيـم بـه العـيـون * وقـد غـدا مـثـل العـيـون^(١)

شبه الشاعر أحمد العلوي النرجس بالعيون والطل بالدموع، أما تلاقي
الأغصان فمثل تعانق العشاق فقال:

فـي رـيـاض تخـال نـرجسـها الغـض * عـيـوناً رـوانـي الأحـداقِ
نـاظـرات كـأن الطـل فـيـهن * دـمـوعٌ تـحـيرت فـي المـآقـي
وتـخال الغـصـون عـند تـلاقـيها * تُحـاكـي تـعـانق العـشـاق^(٢)

المطلب الخامس: وصف في السحاب والغيث والبرق والهباء وما يتصل بذلك:

السحاب كما عرفه كثير من العلماء عبارة عن بخار ماء متصاعد يثقل
ويتكاثف عندما يصعد للطبقات الباردة فيصير سحاباً كما قال تعالى: ﴿وَيُنشِئُ
السَّحَابَ الثَّقَالَ﴾^(٣)، ويقول أيضاً في سورة الأحقاف: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ
أُذُنِهِمْ قَالَوا هَذا عَارِضٌ مُّطَرٌنا﴾^(٤).

لقد تناول الشعراء القدامى وشعراء العصر العباسي السحاب وما
يتصل به مما يدل على ارتباطهم الوثيق بالطبيعة، والسحب تمثل الحياة
والعيش الرغد والرخاء، تحدثوا عن أسمائه وأنواعه، وحتى حركة سيره،
وصفوه بدقة العارف لمظاهر الطبيعة، فمثلاً إذا كان السحاب بطيئاً في سيره
فذاك دليل على ثقله وكثرة مائه، وإذا كان أصفر فذاك دليل على الجذب وقلة
الماء.

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٤٧.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٢٤٠.

(٣) سورة الرعد، الآية ١٢.

(٤) سورة الأحقاف، الآية ٢٤.

أما البرق فدائماً ما يشبه الشعراء به ثغور الحسان وأحياناً السيوف،
والبرق بالنسبة للعاشقين سبب السهر والأرق خاصة إذا كان البرق من تجاه
ديار الأحبة.

يقول الإربلي هذه السحابة محملة بالماء لسواد لونها، كلما برقت
هطلت أمطارها بغزرة، وبهطولها تتوشح الأرض بالورود والأزهار وكأنها
جميعاً تسدى بالشكر والعرفان للسماء التي جادت بمائها حتى صارت الأرض
خضراء كأنها ملابس جميلة مزركشة:

ومزنة صادقة الأنواع * سوداء تأتي باليد البيضاء
تسير مثل سير ذي البطحاء * تجرى بنار البرق دمع الماء
تنثى بها الأرض على النماء * بالسن الصفراء والحمراء^(١)
أهدى إليه الوشى من صنعاء

الأرض ارتوت وتوشحت بالورود والأزهار، فالنرجس يرمق بطرفه
الغض والشقيق كالخود المضرجة، أما الأنهار فهي تصفق والغصون ترقص
والحمائم تصدح وتغنى قال الإربلي:

وصوبُ سحابٍ غادر الأرض لجةً * فأضحى بها جنب الفلاة ملجأ
وأضرَمَ فيه البرقُ شعلة نارَه * على فحمة الليل البهيم فأججا
وسيقت به كومُ السحاب حفلاً * وحركها حادى الرعود فأزعجا
وعاد بها ضوء النهار ولبسه * ثياب حداد تستعار من الدجى
وألقَها مر النسيم فأنزلتُ * سحاباً غدا للأرض بالنور منهجا
فأحدق فيها النرجسُ الغض طرفه * ولاح بها خد الشقيق مضرجا
وأبدت لنا ورداً جنياً نباته * وثغر أقاح ناضر وبنفسجا
وصفقت الأنهار فيها ومالتُ * الغصون وغناها الحمامُ فهزجا^(٢)

وقال أيضاً وقد أتى بتشبيهات عدة:

وسارية غنى لها الرعد فانبرت * تغض شؤون الدمع من كل منزل

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٦١.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٢٦١.

- وطبقت الدنيا فلم تخل بقعة * (لما نسجتها من جنوب وشمال)
وأضرم فيها البرق ناراً كأنه * (منارة ممسى راهب متبتل)
إذا قدحت في أبيض السحب خلتها * (عصارة حناء بشيب مرجل)
فجادني بمنهل العزالي كأنه * (جلاميد صخر حطه السيل من عل)
وأفعمت الغدران حتى كأنما * (ترائبها مصقولة كالسجنجل)
وأبدت لنا زهراً أريجاً كأنه * (نسيم الصبا جادت برياً القرنفل)^(١)

أما الحيص بيص فيصف لنا ذاك المطر الغزير المتتابع، وكيف أن
أقطار الأرض تساوت وأن السراب أصبح حقيقة والناظر يرى الماء على مد
البصر:

- دان يكاد الوحش يكرع وسطه * وتمسه كف الوليد الموضع
متتابع جم كأن ركامه * كبات أو قيصرأ وسرايا تبع
فهمي وألقى بالعراء بعاعه * سحاً لمن دفع الأتى المترع
فتساوت الأقطار من أمواهه * فالقارة العلياء مثل المدفع
وغدا سراب القاع بحر حقيقة * فكأنه لتيقن لم يخدع
متغظماً سلب الوحوش مكانها * تياره فالضب جار الضفدع^(٢)

وفي ذات المعنى يقول أبو تمام:

- كأن السحاب الغرغرين تحتها * حنيئاً فما ترقأ لهن مدامع
ربى شفعت ريح الصبا لرياضها * إلى الغيث حتى جادها وهو هامع
فوجه الضحى غدواً لهن مضاحك * وجنب الندى ليلاً لهن مضاجع^(٣)

شبه السيد الرضي شبه لنا الرذاذ بالإبر وكأنها تحيك للرياض بروداً

وقلائداً:

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٦٢ - ٢٦٣.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٢٦٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٦٣.

من كل سارية كأن رذاذها * إبر تخطيط للرياض بُروداً
نشرت فرائدها فنظمت الربى * من دُرهن قلائداً وعقوداً^(١)

أما كشاجم فوصف لنا ذاك الثلج الذي هطل بغزارة فقال:

ثلجٌ وشمسٌ وصوبٌ غادية * فالأرض من كل جانب غرة^(٢)
باتت وقيعانها زبرجدة * وأصبحت وقد تحولت درة^(٣)

وفي هذه الأبيات شبه البحري هطول المطر بالدمع الغزير وصوت
الرعد بزئير الأسد، أما البروق فمثل السيوف التي تأتي من الهند.

ذات ارتجاز بحنين الرعد * مجرورة الذيل صدوق الوعد
مسفوحة الدمع لغير وجد * لها نسيم كنسيم الورد
ورنة مثل زئير الأسد * ولمحة مثل سيوف الهند
جاءت به ريح الصبا من بعد * فانتشرت مثل انتشار العقد
وراحت الأرض يعيش في رغد * كأنما غدرانها في الوهد^(٤)

يلعبن من صبابها بالنرد

يصف لنا الشاعر سواد السحاب أما البرق فمثل إضرار الزناد يقول
أبو تمام:

سارية مسمحة القياد * مسودة مبيضة الأيادي
قد جعلت للمحل بالمرصاد * سيقنت ببرق ضرر الزناد
كأنه ضمائر الأغمد * سهادة نائمة بالواد^(٥)

نزالة عند رضى العباد

أما ابن الرومي فيصف لنا صفاء ذاك الماء الرقراق، والنسيم يداعب
الأغصان والأزهار فيتعطر الجو ويصير حلواً منعشاً.

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٥٩.

(٢) نفس المصدر السابق، ٢٦١. الصوب: الغادية: الغيمة التي تمطر عند السياح.

(٣) القيعان: جمع قاع وهي الأرض المطمئنة.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٢٦٢.

(٥) نفس المصدر السابق، ص ٢٥٨ - ٢٥٩.

وماء جلت عن حر صفحته القَدَى * من الريح معطارُ الأصائل والبكر
به عبقٌ مما تسحب فوقه * نسيم الصبا تجري على الروض والزهر^(١)

من مشاهد الطبيعة التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالسحب والأمطار مشهد
قوس القزح في السماء يزينها بألوانه المتعددة المنعكسة من ألوان الطيف
الشمسي.

ابن الرومي تأمل ابن الرومي هذا الجو المغمور بالغيوم السوداء
المترامية أطرافها، نفذت خلالها أشعة قوس السحاب المختلفة الألوان،
فتوشحت بالأخضر والأصفر والأبيض وغيرها. شبه لنا كل هذا بثياب امرأة
كثيرة الأصباغ بعضها أقصر من بعض فقال:

وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفاً * على الأفق دُكناً والحواشي على الأرض
يطرزها قوسُ السحاب بأحمر * على أصفر في أخضر تحت مبيض
كأذيال خود أقبلت في غلائل * مصبغة والبعض أقصر من بعض^(٢)
وقال في قوس قزح الزاهي^(٣):

ضحك الزمان لدمع غيم مقبل * ينهل بين شمائل وجنائب
وكان وجه الجو نيط يبرقع * وكان شمس الدجن وجنة كاعب
وكان قوس المزن في تخطيطه * شفه بدت من تحت خضرة شارب^(٤)

أما عن البرق فقد أكثر الشعراء من ذكره في أشعارهم خاصة إذا كان
البرق تجاه ديار المحبوبة، وكثيراً ما يشبه الثغور، ويكون لمعان البرق دائماً
سبباً في أرق المحبين، ابن الحنفي يقول:

أرقت لبرق من دياركم (عنا) * ألم فكم أصبا فؤاداً وكم عنى
بدا حاكياً تلك الثغور ابتساماً * وعاد نحيلاً حاكياً جسمي المضنى
وسل كسيف الهند من غمد أفقه * اختلاساً لقتل الغمض في مقتلتي وهناً

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٦٤.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٢٥٩.

(٣) على ابن إسحق البغدادي، توفي سنة ٣٥٢هـ، وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٣٧.

(٤) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٦٣.

فلو لم تحل من دونه دم عبرتي * جعلتُ له جفني غراماً به جفنًا^(١)
أما المجد بن الظهير الإربلي^(٢) فيرى أن البرق يقدر نيران أشواقه
ويُبكي أجفانه:

إن سمت برقاً بالشام لائحاً * غدوت لدمعي في ثرى السفح سافحاً
أتى رافعاً ستر الظلام ومالئاً * بأنواره هضب الفلاة الأباطحاً
فأدنى ثغوراً دونها كل مهمه * تظل به هوج الرياح طلائحاً
وأقدم أنواع المسرة قادمأ * وعاد لزند الشوق إذ عاد قادحاً^(٣)
البرق دائماً مدعاة للأرق والسهر. يقول أبو تمام:

سهرت للبرق الذي استطاراً * بات على رغم الدجى نهراً
حتى إذا ما أوسع الأمصاراً * وبلاً جهاراً وندى سراراً
عاد لنا ماءً وكان ناراً * أرضى الثرى وأسخط الغباراً^(٤)

وميض البرق يطرد النوم من مضاجع المحبين. يقول نصيب:
أعنى على برق أريك وميضه * تضيء دجنات الظلام لوامعه
إذا اكتحلت عينا محب بومضة * تجافت به حتى الصباح مضاجعه^(٥)
أما في هذه الأبيات فأبو هلال العسكري يصف لنا ذاك البرق وكيف
شق ظلام الليل الهالك وسواده، كلما برقت ولمعت بكت السحب فانهمل الماء
غزيراً وشبه قطرات الماء باللولؤ والرياض بالياقوت.

وبرق سرى في الليل يمحي سواده * فقلتُ سوارُ في معاصمِ أسمرأ
وقد سد عرض الأفق يَمُّ تخاله * يَزِرُّ على الدنيا قميصاً مغبرأ
تخال به مسكاً وبالقطر لؤلؤأ * وبالروضِ ياقوتاً وبالترب عنبرأ

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٦٣ - ٢٦٤.

(٢) الشيخ مجد الدين أبو عبد الله بن الظهير الإربلي، ولد بإربل سنة ٦٠٢هـ، سمع ببغداد في الكهولة
من مجموعة علماء، من كبار الحنفية ومن أعيان شيوخ الأدب، له ديوان شعر في مجلدين. فوات
الوفيات، ج ٢، ص ٣٥٦.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٢٦٢.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٢٥٩.

(٥) نفس المصدر السابق، ص ٢٥٩.

سود عمام يبعث الماء أبيضاً * وغرة أرض تنبت الزهرَ أصفرًا
 إذا ما دعتُ فيه الرعودُ فأسمعتُ * أجاب حداةً فاستهلَّ وأغزراً
 ويبكي إذا ما أضحك البرقُ سنه * فيجعل نار البرق ماءً مفجراً
 كأن به رؤد الشبابِ خريدةً * قد اتخذت ثنى السحابة معجراً
 فتغريرينا من بعيدٍ (تبليجاً) * ودمعٌ يرينا من قريبٍ تحدرًا^(١)

وقال بعض الهاشميين:

وبدا له من بعد ما اندملَ الهوى * برق تألّق موهناً لمعانه
 يبدو كحاشية الرداء ودونه * صعب الذرى متمنع أركانه
 فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه * والماء ما سمحت به أجفانه^(٢)

البرق دائماً يؤرق المحبين قال آخر:

وأرقني برقٌ سرى في غمامةٍ * يهيج أحزان الفؤادِ ابتسامها
 كأن سناه موهناً نار موقدٍ * تلهّب أحياناً ويخبو ضرامها^(٣)

أما أبو هلال فيصف سفناً والأمواج تتلاعب به:

شقن بنا تيارُ بحر كأنه * إذا ما جرى فيه السفين يعربدُ
 ترى مسترق الماء منه كأنه * سيّب على الأرض الفضاء يمددُ
 فطوراً تراه وهو سيف مهندٍ * وطوراً تراه وهو درع مسردُ
 نصعد فيه وهو زرق حمامةٍ * فنحسب أنا في السماء نصعدُ^(٤)

أما هذا الشاعر فشبه سير السفن وسط الأمواج بالرقص السرى
 الرفاء^(٥):

أحذركم أمواج دجلة إذ غدت * معتدلة بالمدّ أمواج مائهّا
 فظلت صغار السفن ترقص وسطها * كرقص بنات الزنج عند انتشائها^(١)

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٦٠-٢٦١.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٢٦١.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٢٦٢.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٢٦٤.

(٥) سبق ترجمته.

لقد وصف السلامي حركة الأمواج ومنظر الأمواج عند الغروب

بقوله:

ونهر تمرح الأمواج فيه * مراح الخيل في وهج الغبار
إذا اصفرت عليه الشمس خلنا * نمير الماء يمزج بالعقار^(٢)
وقال أيضاً:

لم أنس دجلة والدجى متصوب * والبدر في أفق السماء مغرب
فكأنها فيه رداء أزرق * وكأنه فيها طراز مذهب^(٣)
وقال آخر يصف صفاء برك الماء:

لنا برك مثل المرايا تريك ما * تأخر في حافاتها وتقدما
إذا عب فيها شارب الطير خلته * تمد إليه الفرخ جيداً ليطعم^(٤)
وقال ابن المعتز^(٥):

ظلت بها أسقي سلافة قهوة * بكف غزال ذي جفون صوائد
على جدول ريان لا يكتم القذى * كأن سواقيه متون المبارد^(٦)
وقال آخر:

بيضاء جاءت بعد طول العهد * من غير تسويف وغير وعد
كأنها معتبة من صد * فابتسمت عن بارق ذي وقد
ثم بكت بكاء أهل الفقد * فأضحكت وجه الجديب الصلد
بكل غور وبكل نجد * كأن رشح ظلها في الورد^(٧)
دموع صب سفحت في خد

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٦٥.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٢٦٥.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٢٦٥.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٢٦٥.

(٥) سبق ترجمته.

(٦) نفس المصدر السابق، ص ٢٦٤.

(٧) نفس المصدر السابق، ص ٢٥٨.

المبحث الرابع

وصف في الخمر ومجالسها والمدح والفخر

المطلب الأول: وصف في الخمر ومجالسها:

لقد عرف الإنسان الخمر منذ القدم، ولديها مسميات شتى الرحيق،
الراح والسلسبيل... الخ. والعنب أهم مصادرها إلى جانب الشعير والتمر
والتفاح وغيره.

أما شاربي الخمر فهم فئتان: فئة تراها سبيل للخضوع والاستكانة
والخبل، وأخرى تعتبرها سبيل للانتشاء والأحلام ونسيان الهموم، والعيش في
عالم مليء بالمغامرات والبطولات.

والشعراء من الفئة الثانية ينظرون للخمر كمدعاة للوحي والإلهام،
حيث يهيئ لهم الشرب الجو للنشوة والفرح ثم الإبداع والنظم.

والعرب يرونه من دواعي الفخر والجود والفتوة، يبذلون في سبيلها
الغالي والنفيس، كما يتباهى عنتره بقوله:

وَإِذَا شَرِبْتُ فَإِنِّي مُسْتَهْلِكٌ * مَالِي، وَعِرْضِي وَافِرٌ لَمْ يُكَلِّمْ
وَإِذَا صَحَوْتُ فَمَا أَقْصِرُ عَنْ نَدَى * وَكَمَا عَلِمْتَ شَمَائِلِي وَتَكْرُمِي^(١)

وها هو أبو محجن الثقفي يتمنى قربها حتى بعد الممات وذلك في
وصيته المشهورة.

إِذَا مِتُّ فَادْفِنِي إِلَى أَصْلِ كَرْمَةٍ * تُرَوِّى عِظَامِي بَعْدَ مَوْتِي عُرُوقُهَا
وَلَا تَدْفِنْنِي بِالْفَلَاةِ فَإِنِّي * أَخَافُ إِذَا مَا مِتُّ أَنْ لَا أَدُوقُهَا
لِيَرَوِيَ بِخَمْرِ الْخُصِّ فَإِنِّي * أَسِيرُ لَهَا مِنْ بَعْدِ مَا قَدْ أُسَوِّقُهَا^(٢)

(١) ديوان عنتر بن شداد، تحقيق ودراسة محمد سعيد مولوي، ط/٣، ١٩٩٦م، دار عالم للكتب، المملكة
العربية السعودية، الرياض، ص ٨٥.

(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، ج١٩، ص ١٦، ط٢، ١٩٩٢م، بيروت- لبنان، دار الكتب
العلمية.

وهو القائل:

وإني لذو صبرٍ وقد مات إخوتي * ولستُ على الصَّهْبَاءِ يوماً بصابرٍ
أما في العصر الأموي فقد تقلص ذكر الخمر في شعر الشعراء لوقوف
الشرعية والعلماء منها موقف العداء لكونه عنصر من عناصر الفساد.
أما شارب الخمر فيُعاقب بالجلد والحبس وحلق الرأس وما إلى ذلك فقد
أنزل الله تعالى آيات بتحريم الخمر على مراحل قال جل شأنه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ
الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ (١).
وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا
تَقُولُونَ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ
الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٣).

أما في العصر العباسي فقد اتسعت الحريات وكثر الفساد لاتساع الدولة
والاختلاط بالأعاجم، فعاد الشعراء لوصف الخمر، ومجالس اللهو والغناء
والطرب، فالخمر كان يتعاطاه العامة والأمراء والوزراء، ولقد بلغت بغداد
من الترف والثراء ما لم تبلغه حاضرة سواها في ذلك الزمن فليس يسمع فيها
إلا الغناء والطرب واللهو.

ولأبي نواس في الخمریات بدائع رائعة، لقد وصف الخمر والندمان
ومجالسه فأجاد وأبدع ومؤلف التذكرة الفخرية أتى بشعر أبي نواس في مقدمة
وصف الخمر قائلاً: (إني إنما ابتدأت بأشعار أبي نواس لأنه أكثر الناس
إحساناً فيها، وأولهم استقصاءً لمعانيها، وأسبقهم إلى التتوق في أوصافها
والقائبا، وأكثرهم معاقرة لندمائها وشرابها، وأوفاهم تشوقاً إليها وتطرباً

(١) سورة البقرة، الآية ٢١٩.

(٢) سورة النساء، الآية ٤٣.

(٣) سورة المائدة، الآية ٩٠.

عليها، وأبلغهم قولاً في نعوتها الرائقة وصفاتها الفائقة، وإن وُجد لمن تقدمه شيء من ذلك فإنما يوجد القليل النادر ومن تأخر عن زمانه عيال عليه وتبع له^(١).

أما أبو نواس^(٢) فيأمر بالثناء والمدح على الخمر وإظهار المحاسن، ويقول سمها بأحسن أسمائها اقتباس من قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾^(٣) لهذا نسب أبو نواس إلى المجون والزندقة لإسرافه في تعظيم الخمر وإجلالها. ينهي عن قهر أثر الخمر وزيادة نشوتها بزيادة نسبة مزجها بالماء. وفي الأبيات التالية يؤثر الاعتدال والتوسط بين المزج وعدمه:

أَثْنِ عَلَى الْخَمْرِ بِالْأَثَمِ * وَسَمِّهَا أَحْسَنَ أَسْمَائِهَا
لَا تَجْعَلِ الْمَاءَ قَاهِرًا لَهَا * وَلَا تُسَلِّطْهَا عَلَى مَائِهَا
كَرْخِيَّةٍ قَدْ عَتَّقَتْ حَقْبَةً * حَتَّى مَضَتْ أَكْثَرُ أَجْزَائِهَا^(٤)
فَلَمْ يَكْذِبْ دُرُّكُمْ خَمْرُهَا * مِنْهَا سِوَى آخِرِ حَوْبَائِهَا^(٥)

يرى شاعرنا من العيب أن يُمسي النديم وهو غير نشوان، ويقول إذا أردت أن تتبّه وهو في حالة سكر فلا فائدة من ذلك ولا جدوى، أما الصلوات فصلاته دائماً قضاء.

وَنَدْمَانِ يَرَى غُبْنًا عَلَيْهِ * بَأْنِ يُمَسِي وَلَيْسَ بِهِ انْتِشَاءُ
إِذَا نَبَهَتْهُ مِنْ نَوْمٍ سُكْرٍ * كَفَاهُ مَرَّةً مِنْكَ النَّدَاءُ
وَلَيْسَ بِقَائِلٍ لَكَ: إِيهِ دَعْنِي * وَلَا مُسْتَخْبِرٍ لَكَ مَا تَشَاءُ
وَلَكِنْ سَقَتْنِي وَيَقُولُ أَيْضًا * عَلَيْكَ الصَّرْفُ إِنْ أَعْيَاكَ مَاءُ
إِذَا مَا أَدْرَكَتْهُ الظُّهْرُ صَلَّى * وَلَا عَصْرٌ عَلَيْهِ وَلَا عِشَاءُ

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ١٨٩.

(٢) أبو نواس: الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن صباح. الحكمي بالولاء، ولد في الأهوزان، ونشأ بالبصرة، ثم رحل إلى بغداد ومدح ملوك بني العباس، عالم باللغة فصيح اللهجة، شاعر مشهور وله ديوان شعر، أجود شعره وخمرياته. الأعلام، ج ١، ص ٢٢٥.

(٣) سورة الأعراف، الآية ١٨٠.

(٤) الكرخية: نسبة إلى الكرخ، مكان في ضواحي بغداد.

(٥) كتاب التذكرة الفخرية، ص ١٧٥، الحوباء: النفس.

يصلِّي هذه في وقتِ هذي * فكلَّ صَلَاتِهِ أَبداً قِضاءُ
وذاك "محمد" تَفْديهِ نَفْسِي * وَحُقَّ لَهُ وَقُلَّ لَهُ الْفِداءُ^(١)

قيل: إن من خصائص الشراب جودة الهضم ونفي الهم. ودفع مضرة
الماء وإزالة مكروه الدواء قال الأعشى:

وكأسٍ شربتُ على لَذَّةٍ * وأخرى تداويتُ مِنْهَا بهَا
ليعلم من لام إني امروءٌ * أَتَيْتُ اللذاتِ مِنْ بابِهَا^(٢)

البيت الأول أخذه أبو نواس فقال:

دع عَنكَ لومي فَإِنَّ اللومَ إغراءٌ * وداوني بالتي كَانَتْ هي الداءُ
صفراءُ لا تنزلُ الأحزانُ ساحتَهَا * لو مسَّها حجرٌ مَسَّته سَراءُ^(٣)

ويصف الساقية وهي تقوم في ظلمة الليل لتدور بإبريقها على
الشاربين، وكيف أنها بددت ظلمة الليل، إشارة إلى جمال حسن تلك الجارية.
إن شدة صفاء تلك الخمر وتوهجها وسطوعها في الكأس تحول دون إمعان
النظر إليها أو التحديق بها، لذا يكون حال الناظر إليها وهو مطبق حفيه أشبه
بالإغفاء.

طافتُ بإبريقُها والليلُ معتكِرُ * فلاحَ مِنْ نورِها في البيتِ لَألاءُ
فأرسلتُ من فم الإبريق صافيةً * كأنما أخذها بالعينِ إغفاءً
رَقَّتْ عن الماءِ حتى ما يُلانِمُها * لطافةٌ وجفا عن شكلِها الماءُ
فلو مَزَجْتَ بها ناراً لَمَازَجَها * حتى تولَّدَ أنوارٌ وأضواءُ
لتلك أبكى ولا أبكى لمنزلةٍ * كانت تحلُّ بها هِنْدُ وأسماءُ^(٤)

هذا البيت الأخير يكرر أبو نواس معناه كثير حيث يقول:

أيا باكي لأطلالٍ غيَّرها البلى * بكيتُ بعينٍ لا يجفُّ لها غَرْبُ

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ١٧٥. محمد أراد محمد الأمين خليفة العباسي.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ١٧٤.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ١٧٥.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ١٧٦.

الشاعر يبكي في البيت الأخير لتلك الخمر ومفارقتها ولا يبكي على أطلال هند أسماء الدارسة، وفي هذا انتصار للحضارة الجديدة، وحمله على البداوة وما يرتبط بها من الوقوف على الديار الدارسة والربوع الخاوية. وفي البيت الأخير يخاطب المحدثين من الشعراء الذين وصفوا الطلول تباعاً لمن وصفها فقال:

صفة الطلول بلاغة القدم * فاجعل صفاتك لابنة الكرم
لا تخدعن عن التي جعلت * سقم الصحيح وصحة السقم
وصديقة النفس التي حجت * عن ناظريك وقيم الجسم
شجت فغالت فوقها حبياً * متراصاً كتراصف النظم
فعلام تذهل عن مشعشة * وتهيم في ظل وفي رسم
تصف الطلول على السماع بها * أفزو العيان كانت في العلم
وإذا وصفت الشيء متبعاً * لم يخل من سقط ومن وهم^(١)

في هذه الأبيات أبو تمام أيضاً حمل على الوقوف والبكاء على الأطلال، وبدأ يصف المعتقد من الخمر، ويقول مهما قال الشعراء في المدام فإن هناك مجالات ومواضع كثيرة للقول فيها:

لا تُعرج بدارس الأطلال * واسقنيها رقيقة السريال
مات أربابها وبادت قراها * وبرأها الزمان برى الخلال
عنت في الدنان حتى استفادت * نور شمس الضحى وبرد الظلال
ولعمر المدام إن قلت فيها * إن فيها لموضعاً للمقال^(٢)

وأبو نواس يصف لنا تلك الليلة التي جلس يتعاطى فيها الخمر، ويصف لنا كيف التهب الكؤوس وتوهجت عندما صُبَّ فيها الخمر، ثم وصف لنا لك الجارية الحسنة التي أدارت الكؤوس.

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ١٨٨.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ١٨٦.

- يا ليلةً بت أسقاها * ألهجنى طيبها بذكرها^(١)
 تلهب الكأس من تلهبها * وتحسر العين تقصاها
 كأن ناراً بها محرشة * نهابها تارة ونغشاها^(٢)
 كان لها الدهر من أب خلفاً * في حجره صانها ورباها
 وحثت كأسها مقرطقة * لو مني الحسن ما تعداها^(٣)
 إذا اقتضاها طرفي لها عدة * عرفت مردودها بفحواها^(٤)

وهنا أيقظ صاحب تلك الحانة المتغطي بثيابه، راجياً منه أن لا يهتم لما هو حلال وما هو حرام، فقط عليه أن يناوله من تلك التي يتخيرها التجار لجودته. ثم وصف لنا طعم وأثر تلك الخمر في الأجسام فقال:

- يا رب صاحب حانةٍ قد رعته * فبعثته من نوميه المتزمل
 يا صاحب الحانوت لا تك مشعياً * إن السراب محرمٌ كمحلل^(٥)
 فدع الذي نبذت يداك وعاطني * لله درك من شراب الأرجل^(٦)
 ممّا تخيرها التجار ترى لها * قرصاً إذا ذيقت كقرص الفلفل
 ولها ديبب في العظام كأنه * قبض النعاس وأخذه بالمفصل
 عبقت أكفهم بها فكأنما * يتنازعون بها سخاب قرنفل^(٧)
 تسقيكها كف إليك حبيبة * لا بد إن بخلت وإن لم تبخل^(٨)

يقول شاعر المجون لا فرق بين لون الخمر والذهب سوى أن هذا سائل وذاك جامد، وأن الخمرة علت على تلك الصور المنقوشة على الأقداح

(١) أسقاها: أسقى فيها. ألهجنى: أغراني.

(٢) محرشة: مغرية.

(٣) حثت: حركت.

(٤) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ١٧٥.

(٥) مشعياً: لا تهتم لما هو حلال وما هو حرام.

(٦) شراب الأرجل: الخمر التي عصر عنبها بالأرجل.

(٧) سخاب: قلادة ليس فيها جواهر، والجمع سخب.

(٨) نفس المصدر السابق، ص ١٨٤ - ١٨٥.

حتى صارت لها سماء، والنجوم حبابها. وشبه الفقايع التي تعلو الكؤوس بالؤلؤ.

أَقُولُ لَمَّا تَحَاكِيَا شَبَهَا * أَيَّهَمَّا لِلتَّشَابُهِ الذَّهَبُ
هُمَا سَوَاءٌ وَفَرَقٌ بَيْنَهُمَا * أَنَّهُمَا جَامِدٌ وَمَنْسُكِبٌ
مُلْسٌ وَأَمْثَالُهَا مُحْفَرَةٌ * صُورٌ فِيهَا الْقُسُوسُ وَالصُّلْبُ^(١)
يَتَلَوْنَ إِنْجِيلَهُمْ وَفَوْقَهُمْ * سَمَاءٌ خَمِرٌ نَجْوُهَا الْحَبَبُ
كَأَنَّهَا لَوْلُو تَبْدُدُهُ * أَيْدِي عَذَارَى أَفْضَى بِهَا اللَّعِبُ^(٢)

قد يكون الفجر ضاحكاً مبتسماً بخيوطه البيض، فيدعو الشاعر ندمائه للشراب لأن الوقت حينئذٍ وقت فرح وسرور، ولأن الظلام قد ولى وانصرف. واستطاع الشاعر أن يطرد الظلام المتبقي بضوء المدامة المتوهج.

هنا يدعو الشاعر نداماه لتناول الخمر في الصباح الباكر معاتباً إياهم

لطول رقادهم فيقول:

بَاكِرُ صَبَاحِكَ بِالصَّبُوحِ وَلَا تَكُنْ * كَمُسَوِّفِينَ غَدَوْ عَلَيْكَ شِحَاخًا
قَالَ إِبْغَنِي الْمَصْبَاحُ قُلْتُ لَهُ اتَّئِدْ * حَسْبِي وَحَسْبُكَ ضَوْوُهَا مَصْبَاحًا
فَسَكَبْتُ مِنْهَا فِي الزَّجَاجَةِ شَرْبَةً * كَانَتْ لَهُ حَتَّى الصَّبَاحِ صَبَاحًا
مِنْ قَهْوَةٍ جَاءَتْكَ بَعْدَ مَزَاجِهَا * عَطَلًا فَالْبَسَهَا الْمِزَاجُ وَشَاخًا
عَمِرَتْ يُكَاتِمُكَ الزَّمَانُ حَدِيثَهَا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ السَّامَةَ بَاخًا^(٣)

وقال في ذات المعنى:

يَا إِخْوَتِي ذَا الصَّبَاحِ فَاصْطَبَحُوا * فَقَدْ تَغَيَّرَ أَطْيَارُهُ الْفُصْحُ^(٤)
هَبُوا خَذُوهَا فَقَدْ شَكَانَا إِلَى * الْإِبْرِيْقِ مِنْ طَوْلِ نَوْمِنَا الْقَدْحُ
صَرَفًا إِذَا شَجَّهَا الْمِزَاجُ * بِأَيْدِي شَارِبِيهَا تَوَلَّدَ الْفَرْحُ^(٥)

(١) القسوس والصلب: الصور التي على الأقداح.

(٢) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ١٧٧.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ١٧٩.

(٤) نفس المصدر السابق، ١٧٩. الاصطباح: شرب الخمر صباحاً.

(٥) الصرف: غير الممزوجة. شجها: مزجها.

أبو نواس يحث أصحابه على التمتع بالصبا وتناول الخمر المشعشة أي
التي راق مزاجها فقال:

جريتُ مع الصِّبَا طَلِقَ الْجَمُوحِ * وَهَانَ عَلَيَّ مَأْثُورُ الْقَبِيحِ
وَجَدْتُ أَلَذَّ عَارِيَةِ اللَّيَالِي * قِرَانَ النِّعَمِ بِالْوَتْرِ الْفَصِيحِ
وَمُسْمَعَةً إِذَا مَا شِئْتَ غَنَّتْ * مَتَى كَانَ الْخِيَامُ بِذِي طُلُوحِ
تَمَتَّعُ مِنْ شَبَابٍ لَيْسَ يَبْقَى * وَصِلَ بِعُرَى الْغُبُوقِ عُرَى الصَّبُوحِ
وَحُذْنًا مِنْ مَعْشَعَةٍ كُمِيتِ * تُحْرِكُ دَرَّةَ الرَّجْلِ الشَّحِيحِ
تَخَيَّرَهَا لِكَسْرِي رَائِدَاهُ * لَهَا حِظَانٌ مِنْ لَوْنٍ وَرِيحٍ^(١)

وفي أخرى قال واصفاً أثر الخمر في الأجسام:

عاذلي في المدام غير نصيح * ولا تلمني على شقيقة رُوحِي
لا تَلْمَني على التي فتننتني * وأرتني القبيح غير قبيح
قهوة تترك الصحيح سقيماً * وتغيرُ السقيم ثوب الصحيح
إن بذلي لها لبذل جوادٍ * واقتنائي لها اقتناء الشحيح^(٢)

هنا أيضاً يصف أثر الخمر عند تعاطيه ويشبه الخمر بالياقوت. أما

الكأس فمثل اللؤلؤ والساقية فهي حسنا ممشوقة القوام.

لا تبك ليلي ولا تطرب إلى هند * واشرب على الورد من حمراء كالورد
كأساً إذا انحدرت في حلق شاربها * أخذته حمرتها في العين والخذ^(٣)
فالخمر ياقوته والكأس لؤلؤة * من كف جارية ممشوقة القد
تسقيك من ريقها خمراً ومن يدها * خمراً فما لك من سُكْرَيْنِ مِنْ بُدْ
لي نشوتان وللندمان واحدة * شيء خصصت به من بينهم وحدي^(٤)

يصف لنا قطربل ذلك الموضع الذي اشتهر بخمره، ويصف لنا أيضاً
تلك الأشجار الظليلة الكثيفة التي تفيأ ظلاله ثم تخير تلك الخمر المعتقدة

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ١٧٩. رائداه: أي اللذات أرسلهما لشراء الخمر.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ١٧٩ - ١٨٠.

(٣) أخذته: من الحذا وهي العطية.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ١٨٠.

واكمل الشمل بوصول ندمانه وتناولها في كؤوس وأقداح من فضة وذهب فقال:

قُطِرْبُلٌ مَرَبَعِي وَلِي بَقْرِي * الكَرخِ مَصِيفٌ وَأَمِي الْعَنْبِ^(١)
تُرْضَعْنِي دَرَهَا وَتَلْحَفُنِي * بَظْلَهَا وَالْهَجِيرُ يَلْتَهَبُ
إِذَا تَنَتَّتْهُ الْغُصُونُ جَلَلْنِي * فِينَانُ^(٢) مَا فِي أَدِيمِهِ جُوبُ^(٣)
فَقَمْتُ أَحْبُو إِلَى الرِّضَاعِ كَمَا * جُوبُ^(٣)
حَتَّى تَخِيرْتُ بَيْتَ دَسْكَرَةٍ * تَحَامِلُ الطِّفْلُ مَسَّهُ سَغْبُ^(٤)
هَتَكْتُ عَنْهَا وَاللَّيْلُ مُعْتَكِرٌ * قَدْ عَجَمَتْهَا السُّنُونُ وَالْحَقْبُ^(٥)
فَاسْتَوْسَقَ الشُّرْبَ لِلْنَدَامَى * مُهْلَهْلُ النَّسْجِ مَالَهُ هُدْبُ
وَأَجْرَاهَا عَلَيْنَا اللَّجِينُ وَالذَّهَبُ^(٦)
وَالْـ____ذَهَبُ^(٦)

أبي تمام^(٧) أقام وأصحابه عدة أيام يتعاطون الخمر في آنية ذهبية عليها تصاوير، وكان الخمر قد صُبت إلى حلوق الصور التي على الأقداح والماء، إلى رؤوسها.

قال:

أَقَمْتُ بِهَا يَوْمًا وَيَوْمًا وَثَالِثًا * وَيَوْمًا لَهُ يَوْمُ التَّرْحُلِ خَامِسُ

(١) موضع بالعراق اشتهر بخمره.

(٢) الفينان: الغصن الكثيف الورق.

(٣) جللني: غمرني وسترني. الجوب: الواحدة جوبه وهي: الفجوة.

(٤) سغب: الجوع.

(٥) الحقب: الواحدة حقبه: الزمان. يريد أنها خمرة معتقة.

(٦) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ١٧٦ - ١٧٧. اللجين: الفضة. استوسق: اجتمع.

اجتمع.

(٧) أبي خراش: خويلد بن مرة من بني هذيل من مضر، شاعر مخضرم فارس فاتك مشهور، أدرك الجاهلية والإسلام، اشتهر بالعدو فكان يسبق الخيل. أسلم وهو شيخ كبير. عاش إلى زمن عمر رضي الله عنه، نهشته أفعى فقتله. معجم الشعراء، ج ١، ص ٢٠٩.

تُدارُ علينا الكأس في عسجدية * حبتها بأنواع التصاوير فارسُ
فللخمر ما زرت عليه جُوبهم * وللماء ما دارت عليه القلائس^(١)

يقول أبو تمام^(٢) كان لهم في يوم رام لذة وفرح وهم وسط رياض
بهية. ويوم رام: يوم أحد وعشرين من كل شهر من شهور الفرس، وشعرهم
ثلاثون يوماً أبداً، ولكل يوم منها اسم.

أسقنا إن يومناً يوم رام * ورام فضل على الأيام
من شراب الذّ من نظر المعشوق * في وجه عاشق بابتسام
بنت عشر صفت ورقّت فلو * صبت على الليل راح كل ظلام
في رياض بهية بكر النّوء * عليها بمسّتهل الغمام^(٣)

أما أبو عثمان الخالدي فيصف لنا لون تلك الخمر ويقول: قد تتحول
الخمر إلى لون كأسها حيث لا يفرق الناظر إليها بينها وبين الكأس لرققتها
وصفائها.

هتف الصّبح بالدّجى فاسقنيها * قهوة تجعل الحليم سفيها
لست أدري من رقة وصفاء * هي في الكأس أم صبت الكأس فيها^(٤)
وقريب من هذا قول الشاعر:

رقّ الزجاج ورقّت الخمر * فتشابها وتشاكل الأمر
فكأنّما خمر ولا قدح * وكأنّما قدح ولا خمر^(٥)

وهذا يبالغ في وصف خفة الخمر، يقول بأن زجاجات الخمر تكون
ثقيلة عندما تكون فارغة أما إذا ملئت بالخمر تكاد تطير من الخفة ومرجع
ذلك لربما لحركة واضطراب الخمر في داخل الزجاجات ابن دريد^(٦).

(١) نفس المصدر السابق، ١٨٢ ١٧٤.

(٢) سبق ترجمته.

(٣) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ١٨٦.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ١٩١-١٩٢.

(٥) نفس المصدر السابق، ص ١٩٢.

(٦) ابن دريد الأزدي: هو أبو بكر بن محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، عالم لغوي، شاعر مكثّر، من
أئمة اللغة والأدب. قيل فيه: ابن دريد أشعر العلماء. وُلد في البصرة وانتقل إلى عمان ثم عاد، رحل

ثقلت زجاجات أتننا فرغاً * حتى إذا ملئت بصرف الراح
خفت فكادت أن تطير بما حوت * وكذا الجسوم تخفُّ بالأرواح^(١)
أما في الأبيات التالية فيصف ابن البيغاء^(٢) تلك المعصرة التي أناخ بها
قبل المغيب. فشبه العصير بالياقوت وحبابها باللولؤ.

ومعصرة أنختُ بها * وقرنُ الشمس لم يغبِ
فخلت قرارها بالراح * بعضُ معادنِ الذهبِ
وقد زرفت لفقد الكرم * فيها أعين الغنابِ
وجاش عُباب واديها * بمنهلٍ ومنسكبِ
وياقوت العصير بها * يلاعب لؤلؤ الحبيبِ
فيا عجباً لعاصِرها * وما يفنى بها عجبِي
وكيف يعيش وهو يخوضُ * في بحرٍ من الذهبِ^(٣)

وهذا يزيد بن معاوية قانع من لذات الدهر بشيئين لا ثالث لهما، حديث
حلو ممن يحب وخمرة معتقة.

وإني من لذاتِ دهري لقانع * بحلو حديث أو بمُرّ عتيق
هما ما هما لم يبق شيءٌ سواهما * حديث صديق أو عبيق رحيق^(٤)
أما هذا الشاعر فيرى العيش يكمن في ثلاث لا رابع لهما، المال
ووصال غانية وشرب مدام فقال:

العيش عندي في ثلاثٍ أكملتُ * لفتى يريد لذادة الأيام
مال وجود به على ذي حاجةٍ * ووصال غانية وشرب مدام

إلى نواحي فارس وقلده آل مكيال، ديوان فارس، عادل إلى بغداد وتوفى بها عام ٣٢١هـ. من
كتبه: الاشتقاق، الممدود والمقصود، جمهرة اللغة... الخ.

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ١٩٥.

(٢) البيغاء: أبو الفرج عبد الواحد بن نصر بن محمد المخزومي، لقبه البيغاء بسبب لثغة في لسانه، ولد
عام ٣١٣هـ، مدح سيف الدولة عاش بالموصل ثم انتقل إلى بغداد وتوفى بها عام ٣٩٨هـ كان
شاعراً وناثراً، كتب كثير من الرسائل.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ١٩٥.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ١٩٩.

فإذا الفتى فقد الثلاثة كلها * كان الفتى كبهيمّة الأنعام^(١)
ومثل هذا التقسيم لأهل العصر "العباسي".

ما العيش إلا خمسة لا سادس * لهم وإن قصرت بها الأعمارُ
زمن الربيع وشرخ أيام الصبا * والكأس والمعشوق والدينار^(٢)
وقال معاوية في وصف سكران:

فبتُ أرى الكواكبَ دانياتٍ * ينلن أنامل الرجل القصيرِ
أدافعهن بالكفين عنّي * وامسح عارض القمر المنير^(٣)
يصف لنا الممزوج من الخمر، وكيف يدب في مفاصل شاربيه فيقول
مسلم بن الوليد^(٤):

وكأنها وسنانُ الماء يقتلها * عقيقة ضحكت في عارضٍ بردِ
دارت عليه فزادت في شمائله * لين القضيب ولحظ الشادن الغردِ
مشته لما تمشت في مفاصله * لعب الرياح بغصن البانة الخضد^(٥)
إذا مزجت بالماء رأيت لها لهيباً كالنار في الحطب. أما من يتذوقه
فيعبس كالذي يُقدم للقتل يقول أبو تمام^(٦):

إذا عوتبت بالماء كان ا عذارها * لهيباً كوقع النار في الحطب الجزلِ
إذا هي دبّت في الفتى ظن قلبه * لما دبّ فيه قرية من قرى النملِ
إذا ذاقها وهي الحياة رأيتَه * يعبس تعبّيس المقدم للقتل^(٧)

(١) نفس المصدر السابق، ص ٢١٦.

(٢) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشي، ص ٢١٦.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ١٩٩.

(٤) مسلم بن الوليد، ولد عام ٢٠٨هـ بالكوفة ونشأ بها وانتقل إلى بغداد وأقام بها يُعرف بصريع الغواني. كان مداحاً محسناً مجيداً وشاعراً، له ديوان شعر مطبوع. معجم الشعراء العباسيين، ص ٥١٦، إعداد عفيف عبد الرحمن، دار صادر، بيروت.

(٥) نفس المصدر السابق، ص ٢٠٢.

(٦) أبو تمام: سبق ترجمته.

(٧) نفس المصدر السابق، ص ٢٠٣.

يقول العباس بن الأحنف^(١) عندما يحس بالسكر فإنه سيبيدي حبه لها
مجاهرة وسراً.

أراني سآبدي عند أول سكرة * لديها هواها في ملاء وفي ستر
فإن رضيت كان الرضا سبب الهوى * وإن غضبت منه أملت عن السكر^(٢)
واصف الخمر بأنها شمس وكأسها بدر ومديرها هلال وإذا مزجت
فهي كالنجم تلاًلاً يقول ابن الفارض.

شربنا على ذكر الحبيب مدامة * سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم
لها البدر كأس وهي شمس يديرها * هلال وكم يبدو إذا مزجت نجم
ولولا شذاها ما اهتديت لحاتها * ولولا سناها ما تصورها الوهم^(٣)
وقال واصفاً طيبها وشذاها:

ولو عبقت بالشرق أنفاس طيبها * وفي الغرب مزكوم لعاد له الشم
تهذب أخلاق الندامى فيهتدي * بها لطريق العزم من لا له عزم
يقولون لي صفها فأنت بوصفها * عليم أجل عندي بأوصافها علم
صفاء ولا ماءً ولطف ولا هوى * ونور ولا نار وروح ولا جسم^(٤)

ويحكى أن الوليد بن يزيد لما ولى الخلافة جمع جماعة من أهل بيته
وخاصته. فقالوا: ما تريد يا أمير المؤمنين، فقال: أنشدكم أبياتاً قلتها وهي:
أشهد الله والملائكة الأبـ * رار والعاشرين أهل الصلاح
أنني أشتهي السماع وشرب الـ * راح والعض في الخدود الملاح
واستماع الحديث والكاعب الحـ * ناء ترتج في سموط الوشاح^(٥)

(١) العباس بن الأحنف بن الأسود بن طلحة بن بني عدي بن حنيفة، عاش في العصر العباسي الأول
الممتد بين ١٣٢ - ٢٣٢هـ وهو العصر الإسلامي الذهبي، منشأه ومرباه في بغداد ويظهر أنه نشأ
في نعمة وثراء أخذ يعيش حياة مترفة قال عنه المعتز (كان يتعاطى الفتوة على ستر وعفة وله مع
ذلك كرم ومحاسن أخلاق). شعره لم يتجاوز الغزل، توفي سنة ١٩٢هـ - ٨٠٨م.

(٢) كتاب التذكرة الفخرية، بهاء الدين المنشيء، ص ٢٠٧.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٢١٧.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٢١٧.

(٥) السموط: القلائد، الوشاح: سيور تضفر وترصع وتكون في العنق.

والنديم الكريم والخادم الفا * ره يسعى عليّ بالأقداح^(١)
ثم قال: انصرفوا إذا شئتم.

الناس لا يعتدون بالسخاء المتولد عن السكر فقال عنتره^(٢).
فإذا سكرتُ فإنني مستهلك * مالي وعرضي وافر لم يكلم
وإذا صحوت فما أقصرُ عن ندي * وكما علمت شمائي وتكرمي^(٣)
هذا الشاعر كثير العطايا في حالة سكره، وعندما يفيق من السكر يعيد
عطاياه مرة أخرى مخافة أن يُقال بأنه كريم في حالة السكر فقط.
يعيدُ عطايا سكره عند صحوه * ليعلم أن الجود منه على علم
ويسلم في الأنعام من قول قائل * تكرم لما خامرته ابنة الكرم^(٤)
أما هذا الشاعر يدعو ندمانه للشرب في الصباح الباكر. ويكمن سر
الحياة والعيش فيما يراه الشاعر أن يحب ويبادله المحب نفس الإحساس
والشعور فقال:

نبهتُ ندماني فهبوا * قبل الصباح لما استحبوا
هذا أجابَ وذا أثابَ * إلى الصبوح وذاك يحبُّو
أنشدتهم شعراً يعلم * ذا التصابي كيف يصبُّو
وما العيش إلا أن تحبُّ * وأن يحبك من تحبُّ^(٥)
وهذا الشاعر أيضاً يحث على الشرب بكرة فيقول العطوي^(٦):

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢١٦.

(٢) عنتره بن شداد بن عمرو بن معاوية بن قراد العبسي، أشهر فرسان العرب في الجاهلية ومن شعراء الطبقة الأولى، أمه حبشية اسمها زبيبة سرى إليه السواد منها كان من أحسن العرب شيمة وأعزهم نفساً، يوصف بالحلم على شدة بأسه وبطشه في شعره رقة وعذوبة، كان مغرمًا بابنة عمه (عبلة) فقل أن تخلو له قصيدة من ذكرها.

(٣) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٢٠٨.

(٥) نفس المصدر السابق، ص ٢٢٥.

(٦) العطوي: محمد بن عبد الرحمن بن أبي عطية، من شعراء الدولة العباسية، مولده ومنشأه بالبصرة، كان معتزلاً، وكان منهوكاً بالنبيذ وله فيه وفي الفتوح أشعار كثيرة. معجم الشعراء، ج ٥، ص ٩٢.

لعن الله أول الناس سنّ الشراب * * * ظهراً وما أتى من خسار
إن شرب الشراب سير إلى اللهو * * * وخير المسير صدرُ النهار^(١)

وممن ذكر الغبوق قول الشاعر:

قد تولى النهار واستقبل الليل * * * خاليلي فاشربا واسقياني
قهوة تترك الفقير غنياً * * * حسن الظن واثقاً بالزمان^(٢)

لقد توافق أبو نواس وحسان على الممزوج والصرف من الخمر يقول
حسان بن ثابت:

ولقد شربت الكأس في حانوتها * * * صهباء صافية كطعم الفلفل
يسعى إلي بكأسها متنطفاً * * * فيعلنني منها وإن لم أنهل^(٣)
إن التي ناولتني فرددتها * * * قتلت قتلت فهاتِها لم تقتل
كلتاها حلب العصير فعاطني * * * بزجاجة أرخامها للمفصل
بزجاجة رقصت بما في قعرها * * * رقص القلوص براكب مستعجل^(٤)

قيل قبل الدار جار وقبل الطريق رفيق أما العطوي^(٥) فيقول قبل الكأس
نديم. إذ لا يحلو الخمر إلا بمجالسة الندمان فيقول:

يقولون قبل الدار جار مجاور * * * وقبل الطريق النهج أنس رفيق
فقلت وندمان الفتى قبل كأسه * * * وما حث كأس المرء مثل صديق^(٦)

أما هذا الشاعر فلا يكره ندمانه على الشرب ولا يوقظ أحدهم إذا نام
ويرعى ويحفظ حقوقهم في حضورهم وغيابهم.

وما أنا للندمان في الشرب مُكره * * * على الكأس يأبأها ولا قائل هجراً

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٢٥.

(٢) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٢٥.

(٣) المتنطف: الذي في أذنه قرطة وهي الحلق، واحدتها نطفة. العل: شرب ثان، يقال: علل بعد نهل.
النهل: الشرب الأول.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٢١٠.

(٥) العطوي: سبق ترجمته.

(٦) نفس المصدر السابق، ص ٢٢٤.

ولكنني مما أقول له أشربت * هواك ودع ما خفت من شربه الضراً
وأفديه تارات بنفسي ووالدي * واجعل ما أهوى لما فاتته سترًا
وإن رد فضلًا في الإناء شربته * ولم أسقه كُرْهاً لأصرعه سُكرًا
وإن نام لم يوقظ وإن قام لم يُرم * وإن قال لي يا صاح لبيته عشراً
أرى ذاك حقاً للنديم وإنني * لأحفظه سرّاً وأحفظه جهراً^(١)

شرب الخمر في رأي الشاعر له دوافع، فهي تبعد عن شربه الهموم
وتُنسيه أحزانه، والشارب يشعر بعد السكر بأنه في دنيا جديدة يكاد يطير من
الفرح والنشوة أبو عبادة البُحْثري يقول:

فاشرب على زهر الرياض يشوبه * زهرُ الخدود وزهرة الصهباء
من قهوة تُنسي الهموم وتبعث * الشوق الذي قد ظل في الأحشاء
تخفي الزجاجة لونها فكأنها * في الكف قائمةً بغيرِ إناء^(٢)

عندما يذكر الشعراء الخمر المعتقدة القديمة يقولو المدام. والمدام عند
صاحب فقه اللغة هي: "التي أديمت في مكانها حتى سكنت حركتها
وعتقت"^(٣).

المدامة تحيي النفوس أما رائحتها مثل الريحان. ثم يصف تلك الساقية
الحسنة التي أدارات لهم الكؤوس يقول أبو نواس:

ومدامة تحيا النفوسُ بها * جلت مآثرها عن الوصفِ
فتنفس في البيتِ إذ مزجت * كتنفس الريحان في الأنفِ
من كف ساقية مقرطقة * ناهيك من حسنٍ ومن ظُرفِ
نظرت بعيني جوذرٍ خرق * وتلفتت بسوالف الخشف^(٤)

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٢٤ - ٢٢٥.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٢١٤.

(٣) فقه اللغة وسر العربية: للإمام ابن المنصور الثعلبي، تحقيق سليمان سليم البواب، ط٢، دار الحكمة،
١٩٨٩م، ص ٢٨٩.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ١٣٣. الجؤذر: ولد البقرة الوحشية. خرق: لاصق بالأرض من الفزع.
السالفة: صفحة العنق.

يقول أبو نواس بأن هذه الخمر رجع لها الشباب بعد ما عتقت وصفت
وسكن إزبادهما ففارقها الشيب، ويقول إن هذه الخمرة قديمة فلو كان لها لسان
جلست في القوم تقص عليهم قصص الأمم السابقة.

ثُمّتْ أنصاتُ الشبابُ لها * بعدما جازتْ مدى الهرمِ
فهي لليوم التي بُزِلَتْ * وهي ترب الدهر في القِدمِ^(١)
عُتِقَتْ حتّى لو اتصَلَتْ * بلسان ناطق وفم
لاحتبّت في القوم ماثلةً * ثم قصت قصة الأمم
قرعتها بالمزاج يدُ * خلقت للكأس والقلم^(٢)
في ندامى سادة زهرٍ * أخذوا اللذاتِ عن أمم
فتمشّت في مفاصلهم * كتمشي البُراء في السقم
فعلت في البيت إذ مزجتْ * مثل فعل الصبح في الظلم
فاهتدى ساري الظلام بها * كاهتداء السفر بالعلم^(٣)
المطلب الثاني: ما قيل في ذم الخمر:

الحيص بيص:

لا تضع من شريف قوم وإن كنـ * تَ مشاراً إليه بالتعظيم
فالشريف العظيمُ يصغرُ قدراً * بالتعدي على الشريف العظيم
ولعُ الخمرِ بالعقول رمى الخـ * رَ بتجيسها وبالتحريم^(٤)

وهذا يعيب الخمر ويرى أن شرب الخمر يزري بعقل الرجال وبأنفسهم
ويجعلهم مكان سخرية واستهزاء من الآخرين يقول مقيس بن صبابة الكناني:
تركت الراح إذ أبصرتُ رشدي * فلستُ بعائدٍ أبداً لراح
أشرب شربة تزري بعقلي * وأصبحُ ضحكة لذوي الفلاح

(١) بزلت: ثقب دنها باليزال وهي حديدة يفتح بها. ترب الدهر: رفيقته في القدم.

(٢) قرعتها بالمزجاج يد: أي كبحت حديثها بمزجها بالماء.

(٣) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ١٨٩. السفر: المسافرون. العلم: شيء ينصب في الطريق ليهتدي به المسافرون.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٢٢٢.

معاذ الله أن أزرى بنفسِي * ولا أشري الخسارة بالرباح^(١)

وهذا الشاعر لا يشربها في حالة صحته ولا يداوي بها مريضاً. يقول

قيس بن عاصم:

وجدت الخمر معصية وحباً * تفيد الجهل والشين العظيمَا

فلا والله أشربها صحيحاً * ولا أشفي بها أبداً سقيماً

ولا أعطى بها ثمناً حياتي * ولا أدعو لها أبداً نديماً

إذا دارت حمياها تبادت * طوالع تسفه الرجل الحليماً^(٢)

السكر يفتح أبواب الشر.

تركبت الشراب وشرباًه * وصرتُ خديناً لمن عابَه

شراباً يضلُّ سبيل الرشاد * ويفتح للمشر أبوابَه^(٣)

الشرب ضياع للمال والعقل.

لعمرك إن الخمر ما دمت شارباً * لمذهبةً مالي وسالبتني عقلي

وتاركتني مثل الضعاف قواهم * ومجشمتني حرب الصديق بلا نحل^(٤)

أما هذا الشاعر فيرى أن شربي الخمر أناس لا فائدة منهم ولا رجاء.

لم أترك الراح من زهدٍ تجدد لي * فيها ولا أن قلبي ليس يهواها

لكن رأيت نداماها ذوي سفه * فنهنت شربي عنها نداماها^(٥)

أما هذا الشاعر فتاب ولكنه عاد إلى الشرب بحجة أن أصدقائه قد

هجروه وبعدوا عنه فأصبح دون أنيس.

قد كنتُ تبتُّ عن الشراب فلم أجد * أحداً من الإخوان إلا يشربُ

فحلفتُ لا أدع الشراب ولا أرى * إلا إلى أصحابه أتقربُ

ما من صديق منذ كان توبتي * إلا تُجنبني كأني أجربُ

(١) نفس المصدر السابق، ص ٢٢٢.

(٢) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٢٣.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٢٢٣.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٢٢٣.

(٥) نفس المصدر السابق، ص ٢٢٣.

ويقول بعضهم لبعض تائب * وإن كنت تبتُ فقد رجعت فجربوا^(١)
وقال آخر:

تركتُ الشراب سوى شربة * إذا ما أكلتُ تحطُ الطعاما
فتلك وأخرى بها شربتي * وقد كنتُ أشرب زقاً تماماً^(٢)

ابن المقفع يشرب القليل من الخمر خشية الإثم وارتكاب المعاصي:

سأشربُ ما شربتُ على طعامي * ثلاثاً ثم أتركه صحيحاً
فلست بقارف منه أثاماً * ولستُ براكبٍ فيه قبيحاً^(٣)

يتعجب الشاعر لتوبة أحد أصدقائه ويصف الجام بالوجوم لفقدانه ذاك

النديم. أما أنفاس ورائحة المدام فأصبح من بعده كالسم. ابن سناء الملك:

أتاني حديثٌ ليتني لا سمعته * فعندي منه مقعدٌ ومقيمٌ
بأن الحكيم الآن قد هجر الطلى * وتاب فقلنا ما الحكيم حكيمٌ
أتَهجر شمسَ الراح وهي منيرة * ويترك بدرُ التَمِّ وهو وسيمٌ
على الكوب من بعد الحكيم كآبة * وللجام من بعد الحكيم وجومٌ
ومن بعده زوج الخلاعة طالقٌ * ومن بعده أم السرور عقيمٌ
وعادت كؤوس الراح وهي سمائمٌ * لدينا وأنفاس المدام سمومٌ
وكم منةٍ عند الحكيم لكأسه * غدت ولها حق عليه عظيمٌ
أنامت له من لا ينام وربما * أقامت له ما لا يكاد يقومُ
وذلك إنعام قضى بنعيمه * ومن جحد الإنعام فهو لئيمٌ
فإن قال إني قد سقمتُ بشربها * فقد يعشقون الجفن وهو سقيمٌ
وإن قال إني قد سلمتُ فإنه * كما قيل قدماً للديغ سليمٌ
ثم يواصل قائلاً:

وسكتني إبليس حين عتبه * بأن قال هذا الأمر ليس يدومُ
وإن تسألوني بالحكيم فإنني * حكيمٌ بأدواء الحكيم عليمٌ

(١) نفس المصدر السابق، ص ٢٢٣ - ٢٢٤.

(٢) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٢٤.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٢٢٤.

إذا ما خبأ وهج المصيف فإنني * بتحليل ناموس الحكيم زعيم
على أنه إن كان قد تاب مخلصاً * وخاف عقاب الله وهو أليم
فتوبته من سوء ظن بربه * قبيح وإلا فالكريم كريم^(١)

المطلب الثالث: وصف في المدح والفخر

المدح:

المدح من أغراض الشعر الهامة والشاعر هو الناطق الرسمي بلسان قبيلته، يذكر محاسنها ويمجد عظماءها، ويذكر صفاتها الحميدة، والشعب العربي بطبيعة حاله يعشق الخصال الفاضلة والنبيلة ويكرر ذكرها ليتحلى بها كل إنسان.

المدح في اللغة: المديح أو الأمدوحة بمعنى واحد وهو الثناء الحسن.
أما في الاصطلاح الأدبي: فيطلق المدح أو المديح على ذلك الغرض الشعري الذي يهدف فيه الشاعر إلى التنويه بفضائل الممدوح، إشادة بذكره ورفعاً لشأنه.

وإذا تتبعنا المديح عبر العصور المختلفة فنجده يصب في معين واحد وهو ذكر الفضائل. فلنقف على المديح في العصر الجاهلي مثلاً يقول محمد عبد المنعم خفاجة: (المدح من أهم أبواب الشعر العربي، وله مكانة عظيمة في العصر الجاهلي، خاصة بعد أن تكسب الشعراء بالشعر واتخذوه صناعة، ومدحوا الملوك والرؤساء كالأعشى وزهير وغيرهم، وكان الشعراء يمدحون أبطال القبيلة وساداتها، ويشيدون بمكانتهم بين القبائل، ويصفون أخلاقهم ومآثرهم)^(٢).

أما في العصر الإسلامي، فكان هم الناس رفع القيم الإنسانية فهب الشعراء لتثبيت هذه القيم الفاضلة، وتوشحت مدائحهم بالصدق، كما مدح حسان بن ثابت وكعب بن زهير النبي صلى الله عليه وسلم.

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ١٩٧.

(٢) الحياة الأدبية في العصر الجاهلي، محمد عبد المنعم خفاجة، ط١، ١٩٤٩م، ص ٣٧٦.

لقد استمر المديح على هذا الأسلوب حتى العصر الأموي، ولكن حدث اتساع في أغراضه في العصر العباسي، فكان العباسيون يمدحون الخليفة بالصفات المعنوية مثل حامي الدين وحامي الإسلام... الخ.

فنجد كعب بن زهير يمدح النبي صلى الله عليه وسلم قائلاً: ^(١)

إِنَّ الرِّسُولَ شَهَابٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ * وَصَارُمٌ مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ مُسَلُّوْ
فِي فَتْيَةٍ مِنْ قَرِيْشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ * بِبَطْنِ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا زَوُّوْ
زَالُوا فَمَا زَالَ أَنْكَاسٌ وَلَا كَشْفٌ * عِنْدَ اللَّقَاءِ وَلَا مِيلَ مُعَازِلُ
شَمِ الْعِرَانِينَ أَبْطَالَ لِبَوسُهُمْ * مِنْ نَسَجِ دَاوُدَ فِي الْهَيْجَا سِرَابِلُ
لَا يَفْرَحُونَ إِذَا نَالَتْ رِمَاحُهُمْ * قَوْمًا وَلَيْسُوا مُجَازِيْعًا إِذَا نِيلُوا
لَا يَقَعُ الطَّعْنُ إِلَّا فِي نَحْوَرِهِمْ * وَمَا لَهُمْ عَنْ حِيَاضِ الْمَوْتِ تَهْلِيلُ ^(٢)

جمع حسان بن ثابت ^(٣) كل الخصال والصفات الحميدة من شجاعة وكرم وعفو ونجدة وعفة فمدح أصحاب وقوم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله:

إِنْ الذَّوَابُّ مِنْ فَهْرٍ وَإِخْوَتُهُمْ * قَدْ بَيْنُوا سَنَةَ لِلنَّاسِ تَتَبُعُ
قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرَوْا عَدُوَّهُمْ * أَوْ حَاوَلُوا النَّفْعَ فِي أَشْيَاعِهِمْ نَفَعُوا
لَا يَجْهَلُونَ إِذَا حَاوَلَتْ جَهْلُهُمْ * فِي فَضْلِ أَحْلَامِهِمْ عَنْ ذَاكَ مَتَسَعُ
سَجِيَّةُ تِلْكَ مِنْهُمْ غَيْرَ مُحَدَّثَةٍ * إِنْ الْخَلَائِقُ فَاعْلَمْ شَرَّهَا الْبَدْعُ
إِنْ كَانَ فِي النَّاسِ سَبَاقُونَ بَعْدَهُمْ * فَكُلُّ سَبَقٍ لِأَدْنَى سَبَقِهِمْ تَبَعُ
لَا يَرْقِعُ النَّاسُ مَا أَوْهَتْ أَكْفُهُمْ * عِنْدَ الدِّفَاعِ وَلَا يَوْهُونَ مَا رَفَعُوا
لَا يَبْخُلُونَ عَلَى جَارٍ بِفَضْلِهِمْ * وَلَا يَمْسَهُمْ مِنْ مَطْمَعٍ طَبْعُ
أَعْفَى ذَكَرْتُ فِي الْوَحْيِ عَفْتَهُمْ * لَا يَطْمَعُونَ وَلَا يَرْدِيهِمْ طَمْعُ

(١) كعب بن زهير بن أبي سلمى المازني، شاعر عالي الطبقة، من أهل بغداد، مخضرم، هجا الرسول (صلى الله عليه وسلم).

(٢) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٧٣.

(٣) حسان بن ثابت بن منذر الخزرجي الأنصاري أبو الوليد الصحابي، شاعر النبي وهو مخضرم اشتهر في الجاهلية بمدحه ملوك الحيرة. الأعلام، ج ٢، ص ١٧٥.

كأنهم في الوغى والموت مكتنع * أسد بخفان في أرسانها فدع
لا فرح إن أصابوا من عدوهم * وإن أصيبوا فلا خور ولا جزع
خذ منهم ما أتى صفوا إذا غضبوا * ولا يكن همك الأمر الذي منعوا
فإن في حربهم فاحذر عدواتهم * سماً يداف عليه الصاب والسلع
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم * إذا تفرقت الأهواء والشيع^(١)

ويقول علي بن الجهم أن ممدوحه إذا أعطى لا يمن، وأنه يجزل
العطاء على الحسنى، وإذا عاقب لا يعاقب انتقاماً بل تأديباً، وهو أامل من
البدر وأعذب من البحر، فيسأل الله أن يرعاه ويكفيه شر حاسديه.

يعاقب تأديباً ويعفو تطولاً * ويجزى على الحسنى ويعطى فيجزل
ولا يتبع المعروف مناً ولا أدى * ولا البخل من أخلاقه حين يسأل
تأمل تجد لله فيه بدائعاً * من الحسن لا تخفى ولا تتبدل
إذا نحن شبهناك بالبدر طالعاً * بخسناك حظاً أنت أبهى وأجمل
وتظلم إذ قسناك بالليث في الوغى * لأنك أحمى للحريم وأبسل
ولست ببحراً أنت أعذب مورداً * وأنفع للراجي نذاك وأسهل
فلا وصف إلا قد تجاوزت حده * ولا عرف إلا سيبك كفك أفضل
رعاك الذي استرعاك أمر عباده * وكافاك عنا المنعم المتفضل^(٢)

أما السري^(٣) فمدح سيف الدولة وبالح في مدحه وما من كلمة مدح بها
الشعراء إلا جمعها في ممدوحه فكانت عباراته كلوحة إذا تأملها الناظر وجدها
مصورة أمامه:

الله جارك ظاعناً ومقيماً * وضمن نصرَكَ حادثاً وقديماً
إن تسر كان لك النجاحُ مصاحباً * أو تثو كان لك السرورُ نديماً
تغشاك بارقةُ السحاب إذا سرت * غيثاً وتلقاك الرياحُ نسيمياً

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٧٣ - ٢٧٤.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٢٨٣.

(٣) السرى الرفاء هو: السرى بن أحمد الكندي، أصله من الموصل، كان في صباه يرفو ويطرز
الثياب، فعرف بالسرى الرفاء. شاعر مشهور توفى ببغداد سنة ٣٦٦هـ. الأعلام، ج ٢، ص ٨١.

لله همتك التي رجعت بها * همم الملوك الصاعدات هموماً
ورياحك اللاتي تهبّ جنائباً * ولربما أجريتهن سموماً
وخلالك الزهر التي أنفت لها * قمم المراتب أن تكون نجوماً
ألبستني نعماً رأيت بها الدجى * صباحاً وكنت أرى الصباح بهيماً
فغدوت يحسني الصديق وقبلها * قد كان يلقياني العدو رحيماً^(١)

وفي أخرى يمدح سيف الدولة أيضاً ويتحدث عن فتوحاته وكيف أنه
أمن وحى الثغور على اتساع الدولة الإسلامية، ويصور لنا أيضاً المعارك
التي خاضها وانهزام العدو وفراره، ويصف لنا جود وكرم وبأس ممدوحه
فيقول:

فتح أعز به الإسلام صاحبه * وردّ ثاقب نور الملك ثاقبُه
سارت به البرد منشوراً صحائفه * على المنابر محموداً عواقبُه
فكل ثغر له ثغر يضاحكه * وكل أرض به ركب يصاحبه
عاد الأمير به خضراً مكارمه * حمراً صوارمه بيضاً مناقبُه
يوم من النصر مذكور فواضله * إلى التنادي ومشكور مواهبُه
هبت شمائله من طيبتها أرجاً * على القلوب وضاهتها جنائبُه
سل الدمستق هل عن الرقاد له * وهل يعن له والرعب ناهبُه
لما تراءى لك الجمع الذي نزحت * أقطاره ونأت بعداً جوانبُه
تركتهم بين مصبوغ ترائبُه * من الدماء ومخضوب ذوائبُه
فحائد وشهاب الرمح لاحقه * وهارب وذباب السيف طالبُه
يهوى إليه بمثل النجم طاعنه * وينتحيه بمثل البرق ضاربُه
يكسوه من دمه ثوباً ويسلبه * ثيابه فهو كاسيه وسالبُه
يا ناصر المجد لما عز ناصرُه * وخاطب الحمد لما قل خاطبُه
حتام سيفك لا تروى مضاربُه * من الدماء ولا تقضى مآربُه
أنت الغمام الذي تخشى صواعقه * إذا تمر أو ترجى سحائبُه^(٢)

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٩٠.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٢٩٠-٢٩١.

يصف المتنبي^(١) ممدوحه بالجود أما عذاله فلن ينالوا منه مهما كان درجة حقدهم، ويشبه وجهه بالبدر، ويشبه سعة جوده بالبحر يجود للقريب والبعيد. كما يصفه بالشجاعة وكثرة التجارب ورجاحة العقل.

هذا الذي أفنى النضار مواهباً * وعداة قتلاً والزمان تجارباً
ومخيّب العذال فيما أمّوا * منه وليس يردّ كفأً خائباً
كالبدر من حيث التفت رأيتُهُ * يهدى إلى عينيك نوراً ثاقباً
كالبحر يقذف للقريب جواهرأ * جوداً ويبعث للبعيد سحائباً
كالشمس في كبد السماء وضوؤها * يغشى البلاد مشارقاً ومغارباً^(٢)
يدعو المتنبي بالسلامة لممدوحه في ترحاله. ويؤكد بأنه سوف يعود

ظافر غانم وكل الأنظار مرفوعة لرؤيته فقال:

سر حيث شئت تحلّه النوارُ * وأراد فيك مرادك المقدارُ
وإذا ارتحلت فشيعتك سلامة * حيث اتجهت وديمه مدرارُ
وأراك دهرك ما تحاول في العدى * حتى كأنّ صروفه أنصارُ
وصدّرت أغنم صادرٍ عن موردٍ * مرفوعة لقدمك الأبصار^(٣)

وقال أبو طالب يمدح النبي صلى الله عليه وسلم:

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه * ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يطوف به الهلاك من آل هاشمٍ * فهم عنده في نعمة وفواضل^(٤)

دخل أعرابي على معن بن زائدة فأنشده:

أضحت يمينك من جود مصورة * لا بل يمينك منها صورة الجود
بنور وجهك تضيء الأرض مشرقةً * ومن بنانك يجري الماء بالعود^(٥)

(١) أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكندي الكوفي، الشاعر المشهور من أهل الكوفة، اشتغل بفنون الأدب ومهر فيها. وفيات الأعيان، لابن خلكان، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ج ١، ص ٥٨-٦٠.

(٢) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٩٢.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٢٩٢.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٢٧٤.

(٥) نفس المصدر السابق، ص ٢٧٥.

لقد مدح مروان بن أبي حفصة^(١) بنو مطر بأنهم شجعان وحامين
الجار ولهم مكانة عظيمة في الجاهلية والإسلام وكرماء مهما فعل الآخرون لا
يستطيعون اللحاق بهم:

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم * أسود لها في غيل خُفان أشبلُ
هم المانعون الجار حتى كأنما * لجارهم فوق السماكين منزلُ
بهائل في الإسلام سادوا ولم يكن * كأولهم في الجاهلية أولُ
هم القومُ إن قالوا أصابوا وإن دُعوا * أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا
لا يستطيع الفاعلون فعالهم * وإن أحسنوا في النائبات وأجملوا^(٢)
الخنساء تمدح أخاها صخرًا قائلة بالرغم من أنه أصغر القوم سنًا توكل
إليه المهام الصعبة العظيمة لرجاحة عقله وشجاعته فتقول:

طويل النجاد رفيع العماد * ساد عشيرته أمردا
يحمّله القوم ما عالهم * وإن كان أصغرهم مولدا
يرى الحي وفداً إلى بابهِ * وإن أفضل الكسب أن يحمداً^(٣)
وتقول فيه أيضاً:

وما بلغت كف امرئ متاولاً * من المجد إلا والذي نلت أطولُ
وما بلغ المهدون في القول مدحة * وإن أطنبوا إلا الذي فيك أفضلُ^(٤)

مسلم بن الوليد يصف ممدوحه بقوة البطش عند اللقاء وعند خروج
الجيش للقاء العدو فإن الطيور تخرج معهم لتقتها التامة بأنها تجد ما يشبعها.

موف على مهج في يوم ذي رهج * كأنه أجل يسعى إلى أمل
ينال بالرفق ما يعيا الرجال به * كالموت مستعجلاً يأتي على مهل
تكسو السيوف نفوس الناكثين به * ويجعل الهام تيجان الفتى الذبل

(١) مروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة يزيد، شاعر عالي الطبقة، كان جده مولى لمروان بن
الحكم أعتقه يوم الدار، نشأ في العصر الأموي وأدرك زمناً من العصر العباسي، قدم بغداد ومدح
المهدي والرشيد ومعن بن زائدة، توفي ببغداد سنة ٧٢٣هـ.

(٢) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٧٥.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٢٨٠.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٢٧٥.

قد عود الطير عادت وثقن بها * فهن يتبعنه في كل مرتحل
لله من هاشم في أرضه جبل * وأنت وابنك ركنا ذلك الجبل^(١)
يمدح حسان بن ثابت أولاد جفنة بأنهم ملوك مقيمون في ديارهم وليسو
من العرب الذين ينتقلون من موضع إلى موضع ولا مستقر لهم فيقول:
لله در عصاة نادمتهم * يوماً بخلق في الزمان الأول
أولاد جفنة حول قبر أبيهم * قبر ابن مارية الكريم المفضل^(٢)
ويقول إن كلابهم قد أنست بالضيوف دلالة على كرمهم فلا تهر عليهم
وهم شجعان لا يسألون لنجدتهم وعزهم عن السواد المقبل.
يغشون حتى ما تهر كلابهم * لا يسألون عن السواد المقبل
بيض الوجوه كريمة أحسابهم * شم الأنوف من الطراز الأول^(٣)
وهذا مثل بيت الحماسة:
لا يسألون أخاهم حين يندبهم * في النائبات على ما قال برهانا^(٤)
ومثله:
إذا ما دُعُوا لم يسألوا مَنْ دعاهم * لأية حرب أم لأي مكان^(٥)
هذا الممدوح لا ينسى نصيبه من الدنيا ولا عرض الدنيا بشاغله عن
دينه إضافة إلى أنه شجاع وجواد فيقول جرير^(٦):
فيومان من عبد العزيز تفاضلاً * ففي أي يوميه تلوم عواذله
فيوم تحوط المسلمين جياده * ويوم عطاء ما تغب نوافله
فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه * ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله^(٧)

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٧٥-٢٧٦.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٢٧٦.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٢٧٦-٢٧٧.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٢٧٧.

(٥) نفس المصدر السابق، ص ٢٧٧.

(٦) سبق ترجمته.

(٧) نفس المصدر السابق، ص ٢٧٧.

أما أبو عبادة البحتري^(١) شبه ممدوحه بالمطر الغزير لشدة جوده
وكرمه، أما في حالة الحرب فكأنه اللظى لشدة بأسه وفتكه بالأعداء، أما في
الحادثات العظيمة فهو رزين وقور فقال:

هو العارض الثجاج أخضل جوده * وطارت حواشي برقه فتلهباً
إذا ما تلظى في غى أصعق العدى * وإن فاض في أكرومة غمر الربى
رزين إذا ما القوم خفت حلومهم * وقور إذا ما حادث الدهر أحلباً
حياتك أن يلقاك بالجد راضياً * وموتك أن يلقاك بالبأس مغضباً
حرون إذا عاززته في ملمة * وإن جئت من جانب الذل أصحاباً
إذا كف لم يقعد به العجز مقعداً * وإن هم لم يذهب به الخرق مذهباً^(٢)

إبراهيم بن العباس:

إلا أن عبد الله لما حوى الغنى * وصار له من بين إخوانه مال
رأى خلة منهم تسد بماله * فساهمهم حتى استوت بهم الحال^(٣)

ممدوح ابن الرومي^(٤) دائم التبسم والبشر بالرغم من إحسانه وجوده
إليك فهو دائم الاعتذار وكأن ممدوحه روح وباقي الخلق جثمان لا يحيا إلا
بهذا الروح فيقول:

وقل من ضمنت خيراً طويته * إلا وفي وجهه للبشر عنوان
تلقاه وهو مع الإحسان معتذر * وقد يسيء مسيء وهو منان
إذا تيممه العافي فكوكبه * سعد ومرعاه في واديه سعدان
إذا بدا وجه ذئب فهو ذو سنة * وإذا بدا وجه خطب فهو يقظان
أحيا بك الله هذا الخلق كلهم * فأنت روح وهذا الخلق جثمان^(٥)

(١) سبق ترجمته.

(٢) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٨٥.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٢٧٦.

(٤) سبق ترجمته.

(٥) نفس المصدر السابق، ص ٢٧٨-٢٧٩.

إذا لم يكن لديه مال يعطيه لسائله، يكفي السائل أو المتأمل ذلك البشر
والترحاب الذي تلقاه به يقول البحتري^(١):

لو أن كفك لم تجد لمؤمل * لكفاه عاجل بشرك المتهلل
وإذا أمرت فما يقال لك اتد * وإذا قضيت فما يقال لك أعدل^(٢)
وللبحتري أيضاً:

ولقد جريت إلى المعالي سابقاً * وأخذت حظ الأول المتقدم
وكبا عدوك حين رام بك الذي * يخشى فقنا لليدين ولفم^(٣)
وله أيضاً أن الجميع يعلم بأنك النعمة التي ساقتك الأقدار إليهم فأنت
الواقى لهم من كل سوء ومكروه فقال:

كلهم عالم بأنك فيهم * نعمة ساعدت بها الأقدار
فوقت نفسك النفوس من السو * ء وزيدت في عمرك الأعمار^(٤)
أما أبو تمام^(٥) يشبه ممدوحه بالبحر لكثرة عطائه وفائدته ويقول بأن
يداه مبسوطتان عادة حتى لو حاول قبضه لم تطعه أنامله.

هو البحر من أيّ النواحي أتيتَه * فلجته المعروف والجود ساحله
تعود بسط الكف حتى لو أنه * ثناها لقبض لم تطعه أنامله
ولو أن ما في كفّه غير نفسه * لجاد بها فليتق الله سائله^(٦)
يقول أبو تمام أن ممدوحه أجود من وبل الغيث لأن عطائه دائم ولكن
الوبل قد ينقطع فيقول:

فلو كان ما يعطيه من رمل عالج * لاصبح من جدواك قد نفذ الرمل
وماريت وبل الغيث بالجود والندى * فدام ندى كفيك وانقطع الوبل^(٧)

(١) سبق ترجمته.

(٢) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٧٩.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٢٧٩.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٢٧٩.

(٥) سبق ترجمته.

(٦) نفس المصدر السابق، ص ٢٨١.

(٧) نفس المصدر السابق، ص ٢٨٢.

وقال أيضاً:

- رَأَيْتُ يُحْيِي أُنَمَّ اللَّهُ نَعْمَتَهُ * عليه يأتي بما لم يأتِه أحدُ
ينسى الذي كان من معروفِه أبداً * إلى الرجال ولا ينسى الذي يعدُّ^(١)

وقال في أخرى:

- أنا حرٌّ إذا انتسبتُ ولكن * جعلتني لك المكارم عبداً
لا أقول الغمامُ مثل أياديكَ * ولا السيف مثل عزمك حدّاً
أنت أمضى من الحُسام وأصفى * من حيا المزن في المحول وأندى^(٢)

يصف السرى^(٣) هؤلاء القوم بالشجاعة وغيرهم يروج وهم الأقمار.

- من ذا يَنازِعكم كريمات العلى * وهي البروجُ وأنتم أقمارُها
الحربُ تعلم أنكم أسيادها * والأرض تشهد أنكم أمطارُها
فأنشركنَّك دولة جددتها * فتجددت أعلامها ومنازلُها
حليتها وحميت بيضة ملكها * فغرارُ سيفك سورها وسوارُها^(٤)

وقال واصفاً إياهم بالجود والكرم:

- غيثُ العفافة إذا ما الغيثُ أخلفهم * فما ربيعُهم إلا مراجعُهم
يباشر الحرب محمراً صوارمه * ويلبس السلم مبيضاً صنائعه
يا واصل الحمد مهجوراً محاسنه * وذاكر الجود منسياً شرائعه^(٥)

وقال:

- أعليُّ آثرت العلى فتجمعتُ * وأهنت مالكَ بالندى فتفرقا
فاخضب يمينك بالمدام فطالما * خضبت أناملها السنان الأزرقا
وكل الهموم إلى الحسود فحسبُه * أن يقطع الليل البهيم تأرقا

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٨٢.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٢٩٤.

(٣) سبق ترجمته.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٢٩٥.

(٥) نفس المصدر السابق، ص ٢٩٥.

فضل الفتى يغرى الحسود بسبةٍ * والعود لولا طيبه ما أحرَقا^(١)

كريم جواد شجاع يقف له الملوك تهيئاً ومهما مدحه المُداح فهم

عاجزون عن وصفه فقال السري:

فكفاك الغمامُ الجون يسري * وفي أحشائه ماءً ونارُ

يسار من سجيّتها المنايا * ويمنى من عطيتها اليسارُ

حضرنا والملوك له قيام * تغض نواظر فيها انكسارُ

مكارم تعجز المُداح عنها * فجلٌ مديحهم فيها اختصارُ^(٢)

هذا الممدوح ذو همة عالية منذ كان طفلاً، وقبل الاحتلام صار من

السادة، إضافة إلى كرمه وجمال خلقه قال ابن نباته السعدي^(٣):

جنى وهو طفلٌ ثمار العلى * وساد الورى وهو لم يحتلمُ

تضام لرؤيته سجداً * وجوه الملوك التي لم تضمُ

وفي التاج أبلج زان الجمال * ديباجتي خده بالشممُ

قليل على المال إبقاؤه * وما آفة المال إلا الكرمُ^(٤)

وفي هذه يقول بأن ممدوحه سباق دائماً إلى المجد وفعل الخيرات

ومهما حاول الآخرون اللحاق به لا يستطيعون.

كشفت لها ثغراً نقياً وساعداً * حمياً وعيناً لا تنام على نحلٍ

تركت لهم صحن الرهان ونقعه * وفزت بغايات السوابق والخصلِ

كما ترك الظبى المنفر ظله * لقانصه لو كان يقنع بالظلِ^(٥)

تبرم ابن نباته من ويلات الدهر وتظلماته، ولكن عندما تعرّف على

هذا الجواد الكريم تغلب على الدهر وويلاته فقال:

وقد زعموا أنّي حنقتُ عليهم * وما حنقي إلا على الدهرِ وحدهُ

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ٢٩٥.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٢٩٥.

(٣) سبق ترجمته.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٢٩٣.

(٥) نفس المصدر السابق، ص ٢٩٣.

فلست أخاف الدهر بعد تشبثي * بأثوابه فليبلغ الدهر جهده
رميت به في نحره وكأنه * حسام غداة الروع فارق غمده
وحكمني حتى لو أني سألته * شبابي وقد ولى به الشيب رده^(١)

وفي أخرى قال أيضاً في ذات المعنى:

ولقد زهدت فكنت أكرم زاهدٍ * ولقد رغبتُ فرمتُ خير مرام
ومدحت من ولد الملوك متوجاً * متقابلُ الأخوال والأعمام
تسرى قواضيه على أعدائه * حتى تعرس في مقيل الهام
ما زلت بالنعيم الجسم تعمني * وتخصني بالبشر والإكرام
حتى جرى جريال حبك في دمي * ومشى وداك في مشاش عظام^(٢)

يمدح أبو العتاهية^(٣) الرشيد وولده ويصفهم بالحسن والشجاعة.

بنو المصطفى هارون حول سريرهِ * فخير قيام حوله وقعود
يقلب الحاظ المهابة بينهم * عيون ظباء في قلوب أسود^(٤)

أما هذا الشاعر فيصف ممدوحه بالجمال وأنه عفيف اللسان:

فتى مثل عذب الماء أما لقاءه * فبشر وأما وجهه فجميل
غنى عن الفحشاء أما لسانه * فعف وأما طرفه فكليل^(٥)

أما هذا الشاعر فيصف ممدوحه بالجود والحلم:

يذكرنيك الجود والبخل والنهي * وقول الخنا والحلم والعلم والجهل^(٦)

ويقول هذا الشاعر في ذات المعنى:

فألقاك عن مذمومها متنزهاً * وألقاك في محمودها ولك الفضل
وأحمد من أخلاقك البخل إنه * بعرضك لا بالمال حاشي لك البخل^(١)

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٩٢.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٢٩٣.

(٣) أبو العتاهية: هو أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان الغزي بالولاء المعروف بأبي

العتاهية الشاعر المشهور. شرح ديوان أبي العتاهية، دار مرحبا، بيروت.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٢٨٥.

(٥) نفس المصدر السابق، ص ٢٨٤.

(٦) نفس المصدر السابق، ص ٢٨٤.

يصف النابغة ممدوحه بالجود والشجاعة فيقول:

أخلاق مجدك جَلَّتْ مالهَا خطرُ * في البأسِ والجودِ بين البدو والحضرِ
متوجَّ بالمعالي فوق مفرِّقه * وفي الوغَى ضيغمٌ في صورةِ القمرِ^(٢)

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٨٤.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٢٨٤.

الفصل الرابع

الدراسة الفنية لكتاب التذكرة الفخرية

يتضمن خمسة مباحث

- المبحث الأول: اللغة
- المبحث الثاني: تطور المعاني والأسلوب
- المبحث الثالث: الأخيلة
- المبحث الرابع: الأوزان والقوافي
- المبحث الخامس: النوادر

المبحث الأول اللغة

جاء في معجم اللغة... اللغة (أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم)^(١).

واللغة هي: الظاهرة الأولى في كل عمل فني يستخدم الكلمة أداة للتعبير، فمنذ عرف الإنسان العالم أو حاول أن يعرفه يوم أن عرف اللغة، ولم يعرف السحر إلا يوم أدرك قوة الكلمة، ولما عرف الشعر أدرك قوة السحر^(٢).

واللغة قد تكون ذات وظيفة أساسية وهي التعبير عن العواطف والانفعالات وإثارة المشاعر والتأثير في السلوك الإنساني^(٣).

فمثلاً الحطيئة كان في الحبس فكتب أبياتاً من الشعر يستعطف سيدنا عمر بن الخطاب تأثر عمر بالأبيات فبكى وعفا عنه:

ماذا تقول لأفراخٍ بذى مرخ * زُغب الحواصل لا ماءٍ ولا شجرُ
ألقيت كالميت في سجنٍ لمظلمة * فاغفرْ عليكِ سلامُ الله يا عمرُ
أنت الإمامُ الذي من بعد صاحبه * ألقِ إليكِ مقاليدَ النهي البشرُ
لم يؤثروك بها إذ قدموك لها * لكن لأنفسهم كانت بك الأثر^(٤)

وفاطمة عليها السلام تأثرت بهذه الأبيات، فكانت تتمثل بها بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم.

يا عينُ بكى عند كل صباح * جُودي بأربعةٍ على الجراح

(١) معجم متن اللغة، للعلامة الشيخ أحمد رضا، ص ١٩٣، دار مكتبة بيروت.

(٢) الشعر العربي المعاصر قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية، عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، بيروت، ص ٥٣.

(٣) اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري، د. منصور عبد الرحمن، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٧م، ص ٩٨.

(٤) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشي، ص ٤٠.

قد كنت ذات حمية ما عشت لي * أمشي البراح وكنت أنت سلاحي
فاليوم أخضع للذليل وأتقي * منه وادفع ظالمي بالراح
وأغض من بصري واعلم أنه * قد بان حد صوarmi ورماحي
وإذا دعت قمرية شجناً لها * يوماً على شجنٍ دعوت صباحي^(١)

وبما أن الشعر فن قولي فعلى الشاعر أن يراعي أصول وخصائص اللغة الفنية حتى يكون شعره فناً متكاملًا، فالألفاظ بما تحمل من موسيقى وصور وتراكيب تصور الحالة النفسية للشاعر، وبالتالي القارئ يتعاطف مع الشاعر ويشاركه مشاعره.

وحينما يقف القارئ عند أبيات كشاجم في رثاء أمه يتعاطف معه ويشاركه مشاعره وأحزانه:

أبعد مُصاب الأم آلف مضجعاً * وآوي إلى خفضٍ من العيش أو ظل
سترضع عيني قبرها من دموعها * كما ألفتها من رضاعٍ ومن حمل
فأقسم لو أبصرتني عند موتها * وعيني تسح الدمع سجلاً على سجل^(٢)
رثيت لنصل يأخذ الموت جفنه * وأعجبت من فرع ينوح على أصل
وكان عليها إن أقدم قبلها * أشد وأدهى من تقدمها قبلي^(٣)

لذا نجد الشعراء يحرصون كل الحرص على انتقاء الألفاظ النفيسة الرقيقة بدقة وعناية، وشعراء التذكرة الفخرية ألفوا قصائدهم على هذا المنوال بانتقاء الألفاظ في جُلّ قصائدهم التي ألفوها في أغراض الشعر المختلفة فمثلاً ابن طباطبا عندما يصف الربيع ينتقي الألفاظ بعناية فائقة.

أما ترى الأيام كيف تتوجت * وربيعها والٍ عليها قيم
حليت به الدنيا وكانت عاطلاً * فقعودها في كل فجٍ ينظم
فانظر إلى زهر الرياض كأنه * وشي تنشره الأكف منمنم
فالنور يهوي كالعقود تبدت * والوردُ يجلُ والأقاحي يبسم

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشي، ص ٤٠.

(٢) السجل: الدلو المأى ماء.

(٣) ديوان كشاجم، تقديم وشرح مجيد طراد، دار صادر، لبنان - بيروت، ط ١، ١٩٩٧م، ص ٣٠٧.

ويكادُ يضحى الدمعُ نرجسَهُ إذا * أضحى ويقطرُ من شقائقه الدمُ^(١)
 وإذا وقفنا عند الإربلي وهو يصف الربيع أيضاً نجد أنه قد رسم لوحة
 ساحرة حملت العديد من الألوان، والزخارف اللفظية، والتي تحولت إلى
 كلمات تدثرت بالمعنى الجيد والخيال الطريف حين يقول:

وافى بما تبتغيه آذار * وغردت في البان أطيّارُ
 وابتسم الروضَ فدمعُ الحيا * على ابتسامِ الروضِ مدرارُ
 وعطر الأفق شذا زهره * كأنما في الأفق عطارُ
 واكتست الأرضُ به سندساً * طرازه نورٌ وأنوارُ
 ولاح في أرجائه نرسجُ * ناظراه للصب سحارُ
 وحمل النّمام ريح الصّبا * سراً فذاعت منه أسرارُ^(٢)

أما في المدح فالألفاظ قوية ومدوية مثل قول البحرى:
 هو العارضُ الثّجاجُ أخضل جوده * وطارت حواشي برقه فتلهباً
 إذا ما تلظى في وغي أصعق العدا * وإن فاض في أكرومة غمر الرّبي
 رزين إذا ما القوم خفت حلومهم * وقور إذا ما حادثات الدهر أحلبا
 حياتك أن يلقاك بالجوّد راضياً * وموتك أن يلقاك بالبأس مغضباً
 حرون إذا عاززته في ملّة * وإن جنّته من جانب الذلّ أصحابا
 إذا كف لم يقعد به العجز مقعداً * وإن هم لم يذهب به الخرق مذهباً^(٣)
 ولكي يكون الشعر فناً متكاملًا، لا بد أن يراعي الشاعر أصول
 وخصائص اللغة، حتى يجعل القارئ يقف معه ويؤازره في كل وقفاته
 وحالاته النفسية، الإربلي عندما وصف الخمر لم يكتف بوصفه وصفاً خارجياً
 فقط. بل وصفها في كل حالاتها ثم وصف مَنْ يقدمها، وقد انتقى النفيس من
 الألفاظ ليضع معانيه في أصدافها فقال:

طاف بدر الدّجى بشمس المدام * بنت دن يفتضها ابن الغمام

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشي، ص ٢٤٤.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٢٥٥.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٢٨٥.

قهوة تجلب السرور وتجلو * بسناها المنير صبغ الظلام
كلما شجّها المزاج أرتنا * كيف مجرى الأرواح في الأجسام
من يدي فائن اللواظ معشوق * التثني رشيق معنى القوام^(١)

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشئ، ص ١١٩.

المبحث الثاني

تطور المعاني والأسلوب

لقد امتاز العصر العباسي بتطور في كافة العلوم والمعارف، ففيه تكونت المعاجم اللغوية، واتسعت دائرة المعارف وذلك باتساع الدولة. والاختلاط بين الشعوب العربية والأجنبية، أدى كل هذا إلى التزاوج الفكري العربي والثقافات الوافدة، فازداد عدد الأدباء والشعراء بصفة خاصة وحدث اطلاع واسع للثقافات الأجنبية لتشجيع من الخلفاء والأمراء، مما كان له الأثر الكبير في إخصاب الخيال وتطور المعاني والأساليب وظهرت الأقيسة المنطقية، ودقة الأفكار والأدلة المنطقية مثل قول الصنوبري معللاً ومبرهنناً لصفرة النرجس بأنها مرض اليرقان الذي يصبغ المريض بلونه الأصفر.

زعمَ الورد أنه هو أزهى * من جميع الأزهار والريحان
أصابته أعين النرجس الغـ * ض بذل من قولها وهوان
أيما أحسن التـورد * أم مقله ريم مريضة الأجفان
أم فماذا يرجو بحمرته الورد * إذ لم تكن له عينان
إن ورد الخدود أحسن من * عين بها صفرة من اليرقان^(١)

يقول بهاء الدين الإربلي: كتب إليّ شخص بيتين للمغاربة في تفضيل

الورد على النرجس وهما:

من فضّل النرجس في حُلْمه * وهو على الورد الذي يرأسُ
أما ترى الورد غداً قاعداً * وقام في خدمته النرجس

عكس الإربلي البيتين وبرهن أن الورد خراً ساجداً من هيبة النرجس

لما بدا فقال:

(١) ديوان الصنوبري، تحقيق إحسان عباس، نشر دار الثقافة، لبنان - بيروت، ١٩٧٠م، ص ٤٩٨.

لم يكن الوردُ كما أخبروا * واعتقدوا من جهلهم قاعدا
لكن رأى النرجسَ لما بدا * فخرَّ من هيبتِه ساجدا^(١)

وتفنن الشعراء في تعميق المعاني، ومرد ذلك التغيير الذي طرأ على حياة وسلوك الفرد في ذلك العصر الذي اتسم بالزينة والجماليات والترف، مما كان له عميق الأثر في نفوس الشعراء والأدباء فأكثرُوا من التمثيل والتصوير في أشعارهم.

كثيراً من النقاد جعلوا من جودة المعنى شرطاً من شروط الشعر الجيد، أي أن جودة الشعر لا تتحقق إلا من جهة المعنى يقول ابن طباطبا: (وللشعر الجيد صفات يجب أن تتحقق فيه وأخرى يجب أن تتبرأ منه، فما ينبغي أن يتحقق في الشعر جودة معناه، فالكلام الذي لا معنى له كالجسد الذي لا روح فيه)^(٢).

المعاني التي استخدمها شعراء التذكرة الفخرية تختلف باختلاف الأغراض التي استخدمت فيها، ألفاظ الغزل عندهم رقيقة حلوة تعكس خلجات النفس والهيام مثل قول الفقيه غمارة:

سرت نفحة كالمسك أزهى وأعطر * وأردية الظلماء تطوى وتنشر
وما هي إلا نفحة بعثت بها * سلّيمي إلى صبّ تنام ويسهر
وإلا فما بال النسيم الذي سرى * بذى الأثل عن عرف العبير يُعبر
شهدت يقيناً أن مراك جنة * وقالوا وما أدري وريقك كوثر^(٣)

أما ألفاظ الطبيعة فهي رشيقة خفيفة تماثل خريز المياه وتغريد العصافير وتمايل الورود والأغصان، لتعطينا وترسم لنا تلك اللوحة الجمالية الساحرة، يقول الصنوبري:

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٣٧.

(٢) من النقد الأدبي، أحمد أحمد البدوي، ص ١٥، مكتبة نهضة مصر بالقاهرة، ١٩٦٥م.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٥٩.

ما الدهرُ إلاَّ الربيعُ المستتيرُ إذا * أتى الربيعُ أتاكَ النورُ والنورُ
فالأرضُ فيروزُج والجوُّ لؤلؤة * والروضُ ياقوتةٌ والماءُ بلورٌ^(١)

ونقلوا عن الفارسية بعض أسماء الورد فذكروا النرجس والجنار والأذريون وكذلك أسماء الأعياد كالنيروز وغيرها، مما يدل على معرفتهم التامة بثقافات غيرهم. نقلت هذه الألفاظ إلى العربية وعُربت وتسربت إلى أسلوب الشعر يقول البحتري:

وقد نبّه النيروز في غسق الدجى * أوائل وردٍ كنّ بالأمس نومًا^(٢)
فقال أبو تمام:

أسقنا إنَّ يومنا يوم رامٍ * ولرامٍ فضلٌ على الأيام^(٣)
وعندما يصفون الليل يبحثون عن الألفاظ التي تصور حالتهم النفسية، يحسون بالسعادة وسرعة انقضاء الليل إذا كان في لهو وطرب يقول ابن طباطبا:

يا ليلةً حليتْ بزهرِ نجومِها * وسهرتُها حتى بدتْ لي عَاطِلا
لم يرضَ ليلي إذ تجلَّى بدرُه * حتى أراني فيه منك مُخائِلا
فطفقتُ أرمقُ منه بدرًا طالعًا * وطفقتُ أذكرُ منك بدرًا آفلا^(٤)

وعندما تدركهم الأحزان، يشكون من طول الليل وانسدال ظلامه يحسون بأن الطبيعة تشاطرهم الأحزان، فتأتي الألفاظ حزينة وثقيلة.

والليلُ في ثوبِ كأن أديمه * نفضتُ عليه سوادَهن جفونُ
مسودةٌ أقطارُه فكأنه * مطلٌ تلاه نائلٌ ممنونٌ^(٥)

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٥٩.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٢٣٥.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ١٨.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٢٦٩.

(٥) نفس المصدر السابق، ص ٢٦٦.

ويقول هذا الشاعر واصفاً الليل بالطول:

ورب ليلٍ كالبحر هَوَلاً وكالدهـ * رٍ امتداداً وكالمِداد سواداً
خَضَّتُهُ والنجومُ يوقدن حتى * أطفأ الفجرُ ذاك الإيقاداً^(١)
أما الصباح فألفاظه ومعانيه مضيئة مشرقة منتشرة كانتشار الضوء،
النسيم رقيق يداعب كل شيء برفق ولطف ويحلو الخمر في هذه الأجواء،
فهي صفراء وحمراء وزعفرانية... الخ. عبيرها فواح صافية صفاء لكأس
الزجاجي الشفاف.

يقول أبو عثمان الخالدي:

لست أدري من رقةٍ وصفاءٍ * هي في الكأس أم صُبَّتْ الكأسُ فيها^(٢)
وقريب من هذا قول الشاعر:
رقَّ الزجاجُ وراقَتِ الخمرُ * فتشابهَا وتشاكلَ الأمرُ
فكأنما خمرٌ ولا قدحُ * وكأنما قدحٌ ولا خمرٌ^(٣)

لقد امتازت أشعارهم بخلوه من العبارات المستكرهة، انتقوا العبارة
بصدق دون تكلف حين يصفون ما يعانون من هجر وبعد:

تعلمتُ ضربَ الرمل لما هجرتم * لعلِّي أرى فيه دليلاً على الوصلِ
ورغبتني فيه بياضٌ وحمرةٌ * رأيتهما في وجنةٍ سلبتُ عقلي
وقالوا طريق قلَّتْ يا ربَّ للرِّضَى * وقالوا اجتماع قلَّتْ يا ربَّ للشملِ
وقد صرتُ فيكم مثل مجنونٍ عامرٍ * فلا تنكروا أني أخطُ على الرَّمْلِ^(٤)

(١) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشيء، ص ٢٢٦.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ١٩٢.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ١٩٢.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ١٤٧.

المبحث الثالث

الأخيلة

الخيال عنصر مهم من عناصر الأدب، فكل أدب يثير العواطف فيه للخيال دخلاً كبيراً. أما تعريف الخيال فيقول عنه أحمد أمين: "إن تعريفه ككل المعاني عسير، ومن أسباب صعوبة التعريف أن الكلمة تستعمل في أنواع مختلفة من العمليات العقلية"^(١).

ويعرفه شوقي ضيف بأنه: "هو الملكة التي يستطيع بها الأدباء أن يؤلفوا صورهم وهم لا يؤلفونها من الهواء، إنما يؤلفونها من إحساسات سابقة لا حصر لها تختزنها عقولهم وتظل كامنة في مخيلتهم حتى يحين الوقت، فيؤلفوا منها الصورة التي يريدونها"^(٢).

ولتوضيح الخيال ضرب الأستاذ أحمد أمين مثلاً قائلاً: "أن ترى شجرة مزهرة أحياء الربيع، وأسبل عليها جماله، ثم يأتي الشتاء فيعري أوراقها وأزهارها، يرى الشاعر هذا المنظر فيعمل فيه خياله، ويقارن بينه وبين منظر آخر كشعر ابن الرومي في وصف خباز^(٣):

ما أنسى لا أنسى خبازاً مررتُ به * يدحو الرقاقة مثل الملح بالبصر
ما بين رؤيته في كفه كرة * وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة * في لجة الماء يرمى فيها بالحجر

إذن الخيال يعد من أهم دعائم الأدب، وكل موضوع له أثر بالغ على المتلقي كان للخيال دوراً واضحاً فيه، ويتجلى الصورة الحقيقية للخيال في الشعر والقصص وهما أعظم ما يمثل الأدب.

(١) النقد الأدبي: الأستاذ أحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٣، ص٣٨.

(٢) فن النقد الأدبي: شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط٢، ص١٦٧.

(٣) نفس المصدر السابق.

وإذا وقفنا عند معظم شعراء التذكرة الفخرية نجد أن روح الكون تكمن في خيالاتهم الخلاقة التي تبتكر الصور ابتكاراً ليؤلف بين حقائق الوجدان وانفعالاته ويربط بين أجزائه ربطاً محكماً ينم عن الحس والخيال موافقاً رأي الناقد الذي يقول "الخيال هو توليد الصور التي وظيفتها تصوير الحقائق النفسية والأدبية"^(١).

ف نجد قصائدهم تحكي مرامياً متسعاً من الخيال تدل على عبقريتهم الفنانة. يقول ابن التعاويذي:

وابتسم الروضُ فدمعُ الحيا * على ابتسام الروضِ مدرارُ
واكتستِ الأرضُ به سُندساً * طرزاه نورُ وأنوارُ
ولاحَ في أرجائه نرجسُ * ناظره للصَّبِّ سحارُ
وحملَ النمامُ ريحَ الصَّبَا * سراً فذاعتْ منه أسرارُ
يصف أبو هلال سفناً والأمواج تتلاعب به:

شقَّقْ بنا تيارَ بحرٍ كأنه * إذا ما جرى فيه السفينُ يُعربدُ
ترى مسترق الماءِ منه كأنه * سيبٌ على الأرضِ الفضاءِ يُمَدُّ
فطوراً تراه وهو سيفٌ مهندُ * وطوراً تراه وهو دُرْعُ مُسَرَّدُ
نُصعدُ فيه وهو زُرْقُ حمائمُه * فنحسبُ أنا في السماءِ نصعدُ
وهذا يصف لنا صفاء الماء:

لنا بركٌ مثلُ المرايا تريكَ ما * تأخر في حافاتِها وتقَدِّما
إذا عبَّ فيها شاربُ الطيرِ خِلته * يمدُّ إليه الفرخُ جيداً ليطعما
ويصف ابن المعتز انتهاء الليل وانفلاق الصباح:

في ليلة أكل المحاقُ هلالها * حتى تبدَّى مثلَ وقفِ العاجِ
والصبحُ يتلو المشتري فكأنه * عُريانُ يمشي في الدُّجى بسراجِ

(١) النقد الأدبي الحديث، محمد غنيم هلال، مطبعة دار الثقافة ودار العواد، بيروت، ١٩٧٣م،

أخيراً فإن الخيال هو التجسيم، والشاعر يستمد خياله من الأرصادة
المختزنة في عقله، والأرصادة تختلف باختلاف نوع الحياة والبيئة وعمق
الثقافة وغازرة المعرفة.

المبحث الرابع

الأوزان والقوافي

كان القدماء من علماء العرب لا يرون في الشعر أمراً جديداً يميزه عن النثر، إلا ما يشتمل عليه من الأوزان والقوافي وموسيقى الشعر، أوزانه وقوافيه فيه السمة الواضحة التي لا غموض فيها.

وقد استنبط الخليل بن أحمد الفراهيدي أوزان الشعر مما روى من شعر الشعراء الذين سبقوه واستطاع أن يميزها ويفرق بينها، وحصرها في خمسة عشر بحراً كما هو معروف في علم العروض.

وقد ذهب أغلب الدارسين والمحدثين إلى أن موسيقى الشعر العربي في الأوزان والقوافي لم تعرف بدايات التجديد إلا في أواخر العصر الأموي، بعد أن أخذت بعض الأمصار العربية (مكة- المدينة- الكوفة) في أخريات هذا العصر تتأثر بالتيارات الحضارية التي بدأت تهب عليها وتقترب شيئاً فشيئاً من مجتمع المدينة المتحضر، وتبتعد عن مجتمع البداوة، وكان شيوع مجالس الغناء من أبرز العوامل التي أخذت تؤثر في موسيقى القصيدة العربية، كان الشاعر في أغلب الأحيان ينظم المقطوعة ثم يدفع بها لمغنٍ أو جارية تضع لها الأنغام وترددها في مجالس الخلفاء والوزراء، ورأى الشعراء أن البحور القصيرة أطوع في الغناء والتلحين فأكثرُوا من النظم فيها، ووجدوا ارتياحاً إليها من عامة الناس وخاصتهم^(١).

أيضاً كان الشعراء يحتشدون لعملية الإنشاد فمثلاً بشار بن برد إذا أراد أن ينشد شعراً صفق بيديه وتحنح وبصق عن يمينه وشماله ثم ينشد^(٢). هذا يدل على أن النزعة الخطابية كانت تفرض نفسها على الشعر "فإذا بالشاعر حريص على بناء إيقاعات مجلجلة تنتهي به من وقت لآخر إلى وقفات عالية

(١) موسيقى الشعر: إبراهيم أنيس، ص ١٠٦.

(٢) الأغاني: أبو الفرج الأصفهاني، ج ٣، ص ١٣٥.

النبرة، كل هذا لكي يحدث التأثير الأخاذ للجمهور ويجدد من آونة لأخرى نشاطه إلى الاستماع والمتابعة، وكانت الأوزان الطويلة هي في الغالب الإطار الإيقاعي الأنسب لتحقيق هذا الهدف^(١).

قمنا بإحصاء أشعار التذكرة الفخرية من حيث الوزن، نجد أن غالبية أشعارهم في بحر الطويل والبسيط إضافة إلى قليل منه في الكامل والخفيف وغيره، نجد هذه الأوزان بغزارة في شعر المدح والغزل ووصف الربيع، ويقول الدكتور عبد الله الطيب -عليه رحمه الله-: "الطويل والبسيط أطول بحور الشعر العربي، وأعظمها أبهة وجلالة، وإليها يعمد أصحاب الرصانة. وفيهما يفتضح أهل الركاكة والهجنة... والطويل هو البحر المعتدل حقاً، ونغمه من اللطف بحيث يخلص إليك وأنت لا تكاد تشعر به..."^(٢).

ومثال الطويل في المدح قول علي بن الجهم:

يُعاقِبُ تَأْدِيباً وَيَعْفُو تَطَوُّلاً * وَيُجْزِي عَلَى الْحَسَنِ وَيُعْطِي فَيُجْزِلُ
وَلَا يُتَّبِعُ الْمَعْرُوفَ مَنْناً وَلَا أَدَى * وَلَا الْبَخْلُ مِنْ أَخْلَاقِهِ حِينَ يُسْأَلُ
تَأْمَلُ تَجَدُّ لَهِ فِيهِ بَدَائِعاً * مِنْ الْحُسْنِ لَا تَخْفَى وَلَا تَتَبَدَّلُ
إِذَا نَحْنُ شَبَّهْنَاكَ بِالْبَدْرِ طَالِعاً * بِخُسْنِكَ حَظّاً أَنْتَ أَبْهَى وَأَجْمَلُ
وَتُظْلَمُ إِذْ قَسْنَاكَ بِاللَيْثِ فِي الْوَعَى * لِأَنَّكَ أَحْمَى لِلْحَرِيمِ وَأَبْسَلُ^(٣)

ومثال البسيط في الغزل قول بهاء الدين الإريلي:

بِتَنَا حَلِيفِي هَوًى فِي عَفَاةٍ وَتَقَى * وَلَيْسَ إِلَّا صَبَابَاتٍ وَأَشْوَاقُ
يَبْتُ كُلُّ أَمْرٍ مَنَا لَصَاحِبِهِ * حَتَّى بَدَا مِنْ ضِيَاءِ الصُّبْحِ إِشْرَاقُ^(٤)

ومثال الكامل في وصف المشيب لمهيار:

(١) في الشعر العباسي الرؤية والفن، عز الدين إسماعيل، ط٢، ص ٤٣٨، دار المعارف.

(٢) المرشد إلى فهم أشعار العرب، د. عبد الله الطيب، ج ١، ص ٤٤٣، مطبعة جامعة الخرطوم.

(٣) كتاب التذكرة الفخرية، لبهاء الدين المنشي، ص ٢٨٣.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٤٧.

ما أنكرت إلا المشيبَ فصَدَّت * وهي التي جنتِ المشيبَ هي التي
والأمُ فيك وفيكِ شئتُ على الصِّبا * يا جورَ لا ئمتي عليك ولِمتي^(١)

ومثال الخفيف قول أبو تمام في وصف الخيال:

الليالي أحفى بقلبي إذا ما * جرحته النوى من الأيام
يا لها ليلة تنزهت الأر * واح فيها سراً من الأجسام
مجلسٌ لم يكن لنا فيه عيبٌ * غير أنا في دعوة الأحلام^(٢)

أما القافية فهي الركيزة الثانية للشعر بعد الأوزان، إذ لا يسمى الشعر شعراً حتى يكون به وزن وقافية.

ويعرف الخليل بن أحمد القافية بقوله: "هي آخر البيت إلى أول ساكنٍ يليه مع المتحرك الذي قبل الساكن"^(٣).

(١) نفس المصدر السابق، ص ٧٩.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٦٨.

(٣) العمدة: ابن رشيق، ج ٣، ص ١٥١.

الخاتمة

- من خلال دراسة كتاب التذكرة الفخرية توصلت الباحثة إلى ما يلي:
- ١- لقد سار الإربلي في كتابه على نهج مَنْ تقدمه مِنْ العلماء في تقسيم الأغراض الشعرية، ويظهر أثر البحري في حماسته أكثر من غيره.
 - ٢- قام الإربلي بشرح غريب الألفاظ، وحاكى القدماء في نقد بعض الأشعار باستهجانها أو استحسانها، وكان كثيراً ما يستدرك وينظم بعض الأبيات على منوال المقطوعة التي أوردها.
 - ٣- تناول المؤلف معظم أغراض الشعر العربي عدا الهجاء والثرثاء، ولربما يعود ذلك إلى الترف والنعيم الدفاق والحياة اللاهية حيث لا مجال للهجاء والذم.
 - ٤- لقد شغل باب الغزل حيزاً كبيراً في الكتاب وأورد الإربلي أكثر من ألف وثمانمائة بيت شعر في هذا الغرض وربما يعود ذلك إلى تغير المحور الأساسي للغزل الذي شهده ذاك العصر.
- التوصيات:**
- توصي الباحثة طلاب العلم أن ينهضوا لدراسة مؤلفات بهاء الدين الإربلي بصفة خاصة وشعراء وأدباء إربل بصفة عامة حيث لم تقف الباحثة على أي دراسة سابقة لشاعر أو أديب من أدباء إربل.
 - أيضاً تُناشد الباحثة طلاب العلم بجمع ديوان الإربلي حيث لا زال ديوانه مخطوطاً، وذلك بجمع أشعاره من كتاب التذكرة الفخرية إضافة إلى أشعاره المتناثرة هنا وهناك.

الباحثة

الفهارس العامة

فهرس الآيات

الرقم	الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
١	(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا)	البقرة	٢١٩	٨١
٢	(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)	النساء	٤٣	٨١
٣	(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)	المائدة	٩٠	٨١
٤	(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)	الأعراف	٨٤	٨٢
٥	(وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ)	الرعد	١٣	٧٢
٦	(فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطَرُنَا)	الأحقاف	٢٧	٧٢

المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم.

١. ابن الرومي حياته من شعره: العقاد.
٢. أبو نواس: خليل مردم بك، الطبعة الأولى.
٣. الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، تأليف أنيس المقدسي، دار العلمين للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٦٧م.
٤. اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، محمد مصطفى هداره، دار المعارف.
٥. اتجاهات الغزل: يوسف حسني بكار، دار المعارف، مصر.
٦. اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري، د. منصور عبد الرحمن، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٧م.
٧. الأصمعيات: تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر.
٨. الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني، ج ٣.
٩. تاريخ آداب اللغة العربية: جرجي زيدان، علّق عليها وراجعها شوقي ضيف، الجزء الأول والثاني.
١٠. تاريخ إربل: تأليف ابن المستوفي، تحقيق د. سامي ابن السيد محاسن القمار، نشر وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، سلسلة كتب التراث، بغداد، ١٩٨٠م.
١١. تاريخ الأدب العربي: عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٨م.
١٢. تاريخ الشعر العربي: نجيب محمد البهيتي، دار الفكر للطباعة والنشر.
١٣. تاريخ اللغة وصحاح العربية، تأليف إسماعيل بن حماد الجوهري.

١٤. تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، الجزء الثالث عشر، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.
١٥. تاريخ بغداد: السمعاني، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٦. الثعالبي: فقه اللغة وسر العربية.
١٧. الثقافات الأجنبية في العصر العباسي وصدائها في الأدب، تأليف د. صالح آدم بيلو، مكة المكرمة، الجزء الأول، ١٩٨٨م.
١٨. الحياة الأدبية في العصر الجاهلي، محمد عبد المنعم خفاجة، الطبعة الأولى، ١٩٤٩م.
١٩. دراسة الحب في الأدب العربي، مصطفى عبد الواحد، الجزء الأول.
٢٠. الدولة العباسية: د. بدر عبد الرحمن محمد، مكتبة الأنجلو المصرية.
٢١. ديوان ابن الرومي: شرح الأستاذ: أحمد حسن، الجزء الأول، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.
٢٢. ديوان ابن الرومي: شرح وتحقيق عبد الأمير مهنا، دار مكتبة الهلال، بيروت، الجزء الأول، الطبعة الأولى.
٢٣. ديوان ابن الرومي، شرح الأستاذ أحمد حسن بسح، الجزء الثاني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
٢٤. ديوان ابن المعتز، دار بيروت للطباعة والنشر.
٢٥. ديوان أبي تمام ضبط وشرح الأديب شاهين عطية، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٦. ديوان أبي نواس، شرح الدكتور عمر فاروق الطباع.
٢٧. ديوان البحتري، تحقيق د. عمر فاروق الطباع، المجلد الأول، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر، بيروت- لبنان.
٢٨. ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، شرح د. يوسف عيد، دار الجيل، بيروت.
٢٩. ديوان شعر ذي الرمة، تصحيح وتقيق كارليل هنري هيس مكارنتي، مطبعة كمبريج، ١٢٢٧هـ - ١٩١٩م.

٣٠. ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات: تحقيق وشرح: عزيزة فوال بابتي.
٣١. سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، مطبعة محمد علي صبيح، القاهرة، ١٩٦٩م.
٣٢. سيف الدولة الحمداني، مصطفى الشكعة، طبعة دار القلم.
٣٣. شرح ديوان الحماسة: لقريط بن أنيف.
٣٤. الشعر العربي المعاصر قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية، د. عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، بيروت.
٣٥. شعر اللهو والخمر، جورج غريب، سلسلة الموسوع في الأدب العربي، دار الثقافة، بيروت - لبنان.
٣٦. شعر الهذليين: أحمد كمال زكي، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٩م.
٣٧. الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار المعارف، ١٩٦٦م.
٣٨. ضحى الإسلام أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، الطبعة العاشرة، الجزء الثاني، ١٩٣٥م.
٣٩. طبقات فحول الشعراء: محمد بن سلام الجمحي، شرح محمود محمد بن شاكر، مطبعة المدني، ٦٨ شارع العباسية، القاهرة.
٤٠. العصر العباسي الأول، د. شوقي ضيف، طبعة القاهرة، ١٩٨٩م.
٤١. العصر العباسي: تأليف د. شوقي ضيف، الطبعة السادسة، الجزء الأول، دار المعارف بمصر.
٤٢. العمدة: لابن رشيق، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٧٢م.
٤٣. فقه اللغة وسر العربية: للإمام ابن المنصور الثعالبي، تحقيق سليمان سليم البواب، الطبعة الثانية، دار الحكمة، ١٩٨٩م.
٤٤. فن الوصف وتطوره في الشعر العربي، إيليا الحاوي، الجزء الثاني.
٤٥. في الأدب العباسي: السيد تقي الدين.

٤٦. قدامة بن جعفر والنقد الأدبي: مراجعة بدوي طبانه، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثالثة، ١٩٦٣م.
٤٧. المجلة العربية للعلوم الإنسانية، تاريخ إربل، ١٩٨٢م.
٤٨. مختارات شعراء العرب، (مختارات ابن السنجري)، تحقيق علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٥م.
٤٩. مختارات من الأدب، حسين جمعة، منشورات جامعة دمشق، ١٩٦٢م.
٥٠. المرشد إلى فهم أشعار العرب: د. عبد الله الطيب، ج ١، مطبعة جامعة الخرطوم.
٥١. المصطلح في نقد الشعر: إدريس الناقوري، المنشأة العامة، طرابلس، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م.
٥٢. المعتمد بن عباد: عبد الوهاب عزام، دار المعارف بمصر.
٥٣. معجم الشعراء العباسيين: إعداد عفيف عبد الرحمن، دار صادر، بيروت.
٥٤. معجم الشعراء، المرزباني.
٥٥. معجم المؤلفين، تراجم مصنفى الكتب العربية، تأليف عمر رضا كحالة، الناشر مؤسسة الرسالة، الجزء الثالث.
٥٦. معجم المؤلفين، رضا كحالة.
٥٧. معجم متن اللغة: للعلامة الشيخ أحمد رضا، دار مكتبة بيروت.
٥٨. المفضليات، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، مصر، القاهرة، ١٩٤٢م.
٥٩. من قضايا الشعر والنثر في النقد القديم، د. عثمان موافي.
٦٠. مهيار الديلمي وشعره، علي الغلال.
٦١. الموازنة بين أبي تمام والبحتري، للأمدي أبي القاسم بن الحسن بن محمد، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، الطبعة الثانية، الجزء الأول، ١٩٧٢م.

٦٢. موسيقى الشعر، إبراهيم أنيس.
٦٣. نصوص مختارة من الأدب العباسي، د. عبد الكرم الأشتر، المكتبة الحديثة.
٦٤. نظرية الفن والأنواع الأدبية، جون سوبر فيل، الطبعة الرابعة، ١٩٥٧م.
٦٥. يتيمة الدهر: النيسابوري.

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
أ	▪ الاستهلال
ب	▪ الإهداء
ج	▪ شكر وتقدير
٤-١	▪ المقدمة
٨-٦	▪ التمهيد
	الفصل الأول: بهاء الدين الإربلي: عصره- حياته
١٣-٩	المبحث الأول: عصر الإربلي
٩	▪ المطلب الأول: الحياة السياسية
١٠	▪ المطلب الثاني: الحياة الاجتماعية
١١	▪ المطلب الثالث: الحياة الفكرية
١٦-١٤	المبحث الثاني: التعريف بالإربلي
١٤	▪ المطلب الأول: اسمه، ولقبه، ونسبه
١٤	▪ المطلب الثاني: ميلاده، نشأته، رحلاته العلمية
١٥	▪ المطلب الثالث: آثاره العلمية
١٦	▪ المطلب الرابع: وفاته
	الفصل الثاني: التعريف بكتاب التذكرة الفخرية
١٩-١٨	المبحث الأول: غرض كتاب التذكرة الفخرية وموضوعه وموارده
٢١-٢٠	المبحث الثاني: ترتيب الكتاب وتبويبه
٢٢	المبحث الثالث: أثر المصنفات السابقة في الكتاب

الصفحة	الموضوع
	الفصل الثالث: القيم الأدبية في كتاب التذكرة الفخرية (الشعر)
٣٩-٢٤	المبحث الأول: وصف في الغزل والنسيب
٢٥	▪ المطلب الأول: الطيف
٢٨	▪ المطلب الثاني: الوقوف والبكاء
٣٣	▪ المطلب الثالث: طول الليل
٣٧	▪ المطلب الرابع: طيب الثغر
٥٥-٤٠	المبحث الثاني: وصف في الشباب والمشيب والخضاب والغناء
٤٠	▪ المطلب الأول: وصف في الشباب والمشيب
٤٥	▪ المطلب الثاني: ما قيل في ذم الشباب والخضاب
٤٩	▪ المطلب الثالث: وصف في الغناء
٥٤	▪ المطلب الرابع: ما قيل في ذم بعض المغنيين
٧٩-٥٦	المبحث الثالث: وصف في الربيع والرياح والأزهار والسحاب
٥٦	▪ المطلب الأول: الربيع
٦٠	▪ المطلب الثاني: الرياح
٦٧	▪ المطلب الثالث: الشقائق
٧٠	▪ المطلب الرابع: النرجس
٧٢	▪ المطلب الخامس: وصف في السحاب والغيث والبرق والمياه وما يتصل بذلك
١١١-٧٩	المبحث الرابع: وصف في الخمر ومجالسها والمدح والفخر
٨٠	▪ المطلب الأول: وصف في الخمر ومجالسها
٩٦	▪ المطلب الثاني: ما قيل في ذم الخمر
٩٩	▪ المطلب الثالث: وصف في المدح والفخر
	الفصل الرابع: الدراسة الفنية لكتاب التذكرة الفخرية
١١٦-١١٣	المبحث الأول: اللغة

١٢٠-١١٧	المبحث الثاني: تطور المعاني والأسلوب
١٢٣-١٢١	المبحث الثالث: الأخيلة
١٢٦-١٢٤	المبحث الرابع: الأوزان والقوافي
١٢٧	- الخاتمة
١٢٨	- فهرس الآيات القرآنية
١٣٣-١٢٩	- فهرس المصادر والمراجع
١٣٥-١٣٤	- فهرس الموضوعات